التنبيهات

في شرح كتاب



عبد الله بن محمد الجهني



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتفرد بالكمال والجلال والجمال ، المتفضل على عباده بجزيل النوال .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلِّ اللهم عليه ، وعلى آله وصحابته أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ... أما بعد :

فهذا شرح مختصر موجز على كتاب (كشف الشبهات) للإمام : محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - حرصت فيه على إيصال مقصود الشيخ ، وإيضاح بعض عباراته ، وقد وسمت هذا الشرح بـ [**التنبيهات في شرح كتاب كشف الشبهات**] .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع به ، وأن يجزي الشيخ عن المسلمين خير الجزاء .

وصلِّ اللهم على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل الشروع في شرح هذا الكتاب العظيم يجمل بنا أن نتكلم عن عدة أمور ، وهي :

أولاً : أسماء هذا الكتاب :

وردت عدة أسماء لهذا الكتاب ، وهي :

١. كتاب كشف الشبهات .

٢. كتاب كشف الشبهات ، وإدحاض الضلالات .

٣. كتاب كشف شبه المرتاب .

٤. كتاب كشف الشبه .

وأشهر هذه الأسماء هو الأول حيث ذكره بهذا العنوان أشهر تلاميذه ، ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، والشيخ حسين بن غنام .

ثانياً : تاريخه :

ذكر بعض الباحثين المتتبعين لمؤلفات الشيخ أنه لا يعرف تاريخ معين لتأليف الكتاب لا من كلام الشيخ ،ولا من كلام غيره . لكن يظهر من أسلوبه أنه رد على ما أثاره خصوم التوحيد حول دعوة الشيخ خصوصاً حول كتاب التوحيد وما قام به من هدم القباب وغيرها من الإجراءات العملية .

قال الشيخ د. عبد الله الصالح العثيمين : لا تعطي المصادر تاريخاً معيناً لتأليف الشيخ محمد لهذا الكتاب ، لكن قارئه يرى أنه ما أثاره الخصوم من شبه حول آراء مؤلفه في التوحيد وما يناقضه ، وعلى هذا فإنه لم يؤلف إلا بعد ظهور ردود الفعل الأولى لما دعا إليه الشيخ ، وأقرب الاحتمالات أن تأليفه له حدث أواخر إقامته في العيينة ، أو بعد انتقاله إلى الدرعية أ.هـ

وكان انتقال الشيخ إلى الدرعية سنة ١١٥٧ ، أو ١١٥٨ هـ كما ذكر ابن غنام وغيره[١] .

ثالثاً : أهميته :

هذا الكتاب يعتبر من كتب الردود ، وهو على صغر حجمه فقد حوى علماً جماً فيما يتعلق بتوحيد العبادة وما يناقضه .

قال الشيخ سليمان بن سحمان : وكان كتاباً عظيم النفع على صغر حجمه ، جليل القدر ، انقمع به أعداء الله ، وانتفع به أولياء الله .

وقد عني العلماء وطلاب العلم بهذه الرسالة ، فحفظوها ، وقاموا بشرحها ، والتعليق عليها ، وتدريسها في المساجد .

---

(١) انظر مقدمة (كشف الشبهات) بتحقيق عبد الله القحطاني ، وقد اعتمدت في ضبط المتن على تحقيقه جزاه الله خيراً ، حيث قارن المتن على تسع نسخ خطية .

رابعاً : سبب تأليف الكتاب ، وموضوعه :

بعد أن نشر الشيخ دعوته علماً وعملاً ، وبدأ بتأليف كتاب التوحيد ، وهدم القباب ، وبين الشرك وحاربه ، وبين مذهب أهل السنة والجماعة في توحيد الألوهية ، أثيرت حول الشيخ شبه ، وبدأ علماء السوء يحاربونه ويحذرون منه .

وألف سليمان بن سحيم كتاباً ذكر فيه أنه خرج في عصـــرنا مبتدع ، وذكر ست عشرة شبهة ضد الشيخ .

وقد كان هؤلاء العلماء يحذرون من الشرك وهم واقعون فيه ، لأنهم لم يفهموا من التوحيد إلا القليل الذي فاقهم فيه أهل الجاهلية ، فجعلوا الإله بمعنى فاعل ، لا بمعنى مفعول ، أي المألوه المعبود (١) .

فألف الشيخ هذا الكتاب يفند افتراءاتهم ، ويكشف شبههم ، ويبين التوحيد الحق ، فكانت هذه الرسالة العظيمة الجليلة (٢) .

---

(١) ويذكر الدكتور عبد الله العثيمين عدداً تقريباً لأولئك الخصوم في نجد آنذاك ، وتنوع مواقفهم فيقول : واضح من رسائل الشيخ الشخصية أن دعوته لقيت معارضة شديدة من قبل بعض علماء نجد ، فالمتتبع لها يلاحظ أن أكثر من عشرين عالماً أو طالب علم وقفوا ضدها في وقت من الأوقات ، ويأتي في مقدمة هؤلاء المعارضين عبد الله المويس من حرمة ، وسليمان بن سحيم من الرياض ، ويستفاد من هذه الرسائل أن معارضي الشيخ من النجديين كانوا مختلفي المواقف ، فمنهم من عارضه واستمر في معارضته مثل المويس ، ومنهم من كان يعترف في بداية الأمر بأن ما جاء به الشيخ أو بعضه حق ، لكنه غيّر موقفه مع مرور الزمن مثل ابن سحيم ، ومنهم أيضاً من كان متأرجحاً في تأييده ومعارضته مثل عبد الله بن عيسى .

(٢) قال ابن غنام : كان غالب الناس في زمانه ــ يعني : الإمام محمد بن عبد الوهاب ــ متضمخين بالأرجاس ، متلطخين بوضر الأنجاس ، حتى قد انهمكوا في الشرك بعد حلول السنة المطهرة بالأرماس ، وإطفاء نور الهدى بالانطماس ... فعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين ، وخلعوا ربقة التوحيد والدين ، فجدّوا في الاستغاثة بهم في النوازل والحوادث ...

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : وفي حدود القرن العاشر وما بعده لا يعرف أحد من العلماء تكلم بالتوحيد ودعا إليه ، وعرف هذا الشرك ونهى عنه ، حتى أظهر الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله . الدرر السنية ج١١ص٥٧٢ .

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن : كان أهل عصره ومصره في تلك الأزمان قد اشتدت غربة الإسلام بينهم ، وعفت آثار الدين لديهم ، وانهدمت قواعد الملة الحنيفية ، وغلب على الأكثرين ما كان عليه أهل الجاهلية ، وانطمست أعلام الشريعة في ذلك الزمان ، وغلب الجهل والتقليد ، والإعراض عن السنة والقرآن ، وشب الصغير لا يعرف من الدين إلا ما كان عليه تلك البلدان ، وهرم الكبير على ما تلقاه من الآباء والأجداد ، وأعلام الشريعة مطموسة ، ونصوص التتريل وأصول السنة فيما بينهم مدروسة .

خامساً : محتويات الكتاب :

يمكن أن نقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام ، وهي :

١. **القسم الأول : مقدمة** : وجعلها الشيخ طويلة ، وذكر فيها عدة أمور منها : تعريف توحيد العبادة ، وبيان أنه دين جميع الرسل ، ثم بيان حال كفار قريش اعتقاداً وعملاً ، وبيان السبب الذي أحل دمائهم وأموالهم ، وهو جعل وسائط بينهم وبين الله ، وهذا هو فعل كثير من الناس في زمن الشيخ ، وإلى زمننا هذا ، وذكر أهم سموا الذي سماه الكفار (إله) بغير ذلك مثل (السيد) و (صاحب السر) و (الولي) و (الشيخ) وغير ذلك ، وصرفوا لهم ما كان يصرفه المشركون لآلهتهم ، وأكثر .

وذكر في هذه المقدمة أن من حكمة الله أن جعل لكل نبي عدواً يصد عن دين الله بشبه يلبس بها على الجهال ، وبين أنه ينبغي التسلح بالعلم لمواجهة هذا العدو .

ومراد الشيخ بهذه المقدمة المهمة بيان السبب الذي أحل دماء المشركين وأموالهم ، وأنه هو بعينه الذي يفعله الناس في زمن الشيخ من جعل الوسائط بينهم وبين الله ، وأنه لم تغن عنهم أعمالهم الطيبة التي كانوا يتقربون بها إلى الله ، وكذلك لم يغن عنهم إقرارهم بتوحيد الربوبية ، أو أكثر أفراده .

وهذه المقدمة مهمة جداً ، وفقهها يزيل إشكالات كثيرة .

وتقديم الكتاب بهذه المقدمة دليل على فقه الشيخ ، وحسن تصنيفه .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : وقدم المصنف رحمه الله مقدمة نافعة في بيان حقيقة دين المرسلين وما دعوا إليه ، وحقيقة دين المشركين وما كانوا عليه ، ليعلم الإنسان حقيقة دين المرسلين عند ورود الشبهة ، ويعلم من هو أولى بدين المرسلين من دين المشركين ، وبيَّن أن مشركي زمانه هم أتباع دين المشركين .

٢. **القسم الثاني : ذكر فيه الشبه التي يتعلق بها المشركون** : وذكر الرد عليها ، وهي اثنتا عشرة شبهة ، وأحياناً يرد بجواب واحد ، وأحياناً بأكثر من جواب .

٣. **القسم الثالث : خاتمة** : وبين فيها أهمية التوحيد ، ووجوب العمل به ظاهراً وباطناً ، وتحدث عن بعض الأعذار الواهية التي لا تمنع من العمل بالتوحيد .

شرح عنوان الكتاب :

الكشف لغة : الإزالة والرفع ، ومنه قوله تعالى ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب ﴾ أي : رفعنا وأزلنا .

وقوله تعالى ﴿ لئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ ﴾ أي : رفعت وأزلت .

الشبهات جمع شبهة . وهي لغة : الالتباس .

قال في المصباح المنير : سميت شبهة ، لأنها تشبه الحق .

وقال ابن تيمية : لا يشتبه على الناس الباطل المحض ، بل لابد أن يشاب بشيء من الحق .

فكأن المصنف يقول : إن كلام أهل الباطل وإن كان باطلاً إلا أنهم يخلطونه بشيء من الحق ، فيختلط على العوام ، ويشكل عليهم حتى يظنوا الباطل حقاً .

فكتب هذه الرسالة لرفع وإزالة هذه الاعتراضات والإشكالات في توحيد العبادة ، ليظهر الحق جلياً لمن أراده حقاً .

قال تعالى ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ .

يقول ابن تيمية في الجواب الصحيح : الحق إذَا جُحِدَ وعورض بالشبهات أقام الله البينات بما يظهره من أدلة الحق ، وبراهينه الواضحة ، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة ، وذلك بما يقيمه الله سبحانه وتعالى من الآيات والدلائل التي يظهر بها الحق من الباطل ، والحالي من العاطل ، والهدى من الضلال ، والصدق من المحال ، والغي من الرشاد ، والصلاح من الفساد ، والخطأ من السداد ، وهذا كالمحنة للرجال التي تميز بين الخبيث والطيب .

ويقول ابن القيم في كلام نفيس : الله سبحانه سمى علم الحجة سلطاناً ، لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره ، فله بها سلطان على الجاهلين ، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد ، فإن الحجة تنقاد لها القلوب ، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن ، فالحجة تأسر القلب وتقوده ، وتذل المخالف ، وإن أظهر العناد والمكابرة فقلبه خاضع لها ذليل ، مقهور تحت سلطانها ، بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع ، والأسود ونحوها ، قدرة بلا علم ، ولا رحمة ، بخلاف سلطان الحجة ، فإنه قدرة بعلم ، ورحمة ، وحكمة ، ومن لم يكن له اقتدار في علمه فهو إما لضعف حجته ، وسلطانه ، وإما لقهر سلطان اليد ، والسيف له ، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ، ظاهرة على الباطل ، قاهرة له أ.هـ

وإن مقام بيان الحق ، وتعرية الباطل بالحجة الدامغة من أعظم مقامات الإسلام .

يقول ابن تيمية : فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم ، لم يكن أعطى الإسلام حقه ، ولا وفى بموجب العلم والإيمان ، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور ، وطمأنينة النفوس ، ولا أفاد كلامه العلم واليقين .

ولا يفوتني هنا أن أذكر إخواني بكتاب (دعاوى المناوئين) للشيخ الفاضل عبد العزيز آل عبد اللطيف ، فهو كتاب لا ينبغي لطالب علم له عناية بالتوحيد أن يترك النظر فيه ، فقد بذل المؤلف فيه جهداً كبيراً ، وجمع فيه الشبهات المثارة ضد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من مصادرها ، وأجاب عليها بأجوبة مسددة ، وفقه الله لكل خير .

وأنصح كل من له قدرة وجِدة أن ينشر هذا الكتاب ، خاصة في البلاد التي ينتشر فيها الشرك ، نصرة لدين الله ، ونشراً للتوحيد الخالص ، والعقيدة الصافية .

فصل في الموقف من الشبهات

المقام الأول هو التوقي من الفتن ، ومن مواطن الفتن ، فالمنبغي على المسلم أن يبتعد عن أهل الزيغ سماعاً وقراءة ومجالسة ، وقد أمر الله عباده بعدم مجالسة الذين يخوضون في آيات الله ، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ ﴾ وقال سبحانه ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ .

والخوض في الشبهات وإيرادها هو من الخوض في آيات الله .

وفي حديث الدجال المشهور أمر النبي ﷺ من أدرك الدجال أن ينأ عنه ويبتعد ، فإن الرجل يأتيه وهو مؤمن ثم يلحق به من شدة ما معه .

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث وجوب الابتعاد عن مواطن الشبهات ، و عن أهل الشبهات .

ولذا كان بعض السلف لا يسمع من أهل الأهواء شيئاً ، حتى كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، كما ورد ذلك عن ابن سيرين رحمه الله ، فإنه قد جاءه رجلان ممن عرفوا بالبدعة ، والشبهة ، فجلسا بين يديه يريدان أن يقرأا عليه آية فقال : إما أن تقوما ، وإما أن أقوم .

وقال إبراهيم النخعي : لا تجالسوا أهل الأهواء ، فإن مجالستهم تذهب بنور الإيمان من القلوب .

وقال أبو قلابة : لا تجالسوا أصحاب الأهواء ، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم ، أو يلبسوا عليكم بعض ما تعرفون .

وقال مصعب بن سعد : لا تجالس مفتوناً ، فإنه لن يخطئك منه إحدى اثنتين : إما أن يفتنك فتتابعه ، وإما أن يؤذيك قبل أن تفارقه .

وكان الحسن ومحمد يقولان : لا تجالسوا أصحاب الأهواء ، ولا تجادلوهم ، ولا تسمعوا منهم .

وقال مسلم بن يسار : لا تمكن صاحب بدعة من سمعك ، فيصب فيها ما لا تقدر أن تخرجه من قلبك .

ومن أهم الأمور في هذا الباب الحرص على مصادر التلقي ، ففكر الإنسان يتكون من ثقافته ، فإذا كان يقرأ لأهل الأهواء فلا بد أن يتأثر بأفكارهم ، ولذا كان من فقه أئمة السنة أنهم صدروا كتبهم المسندة بباب (مصادر التلقي) .

وما وقعت الشبهات في الأمة إلا حينما أقبل الناس على دراسة الثقافات المستوردة ، خاصة كتب الفلسفة في العصور المتقدمة في زمن المأمون ، واعتاضوا بها عن الوحي .

ومن الأمور المغروزة في طبيعة الإنسان أنه إذا أكثر من شيء أَلِفه ، ورغب عما سواه ، فإن أَلِفَ القرأة في كتب الفكر ، أو في المجلات والصحف ، ثقل عليه كلام أهل العلم ، بل ثقل عليه النظر في كتاب الله ، أو في سنة رسول الله ﷺ ، قال بعض السلف : ما ابتدع أحد بدعة إلا نُزعت حلاوة الحديث من قلبه .

ورحم الله الإمام أحمد حيث ذكر أن الكلام إذا دخل في القلب قل أن يخرج منه . ويعني علم الكلام .

وما حصلت الفتنة اليوم إلا عند المثقفين ومن يسمع لهم .

فطوبى لمن اطمأنت نفسه ، وكمل يقينه بكمال الوحيين ، وطوبى لمن وفق للسماع من أهل العلم الراسخين ، ويا حسرة من يجد لذته وهمته في غيرهما ، ولا يقرأ فيهما إلا لطلب البركة ، أو لإرضا النفس اللوامة ، إن كانت له .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه ، فإنه إذا قَبِل الباطل أحبّه ورضيه ، فإذا جاء الحق بخلافه ردّه وكذّبه إنْ قدِر على ذلك وإلا حرّفه .

وقال ابن تيمية : المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل .

وقال ابن القيم : من استكبر على الانقياد للحق أذله الله ووضعه وصغره وحقره .

وفتنة الشبهة أعظم من فتنة الشهوة ، لأن فتنة الشهوة يشعر صاحبها بالتقصير ، وأما فتنة الشبهة فيظن صاحبها أنه على الحق والهدى ، قال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) .

وفتنة الشبهة إذا أنشبت أظفارها في قلب العبد قل أن ينجو منها .

قال تعالى ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ما زالت الشبهات تغزو قلبه — حتى تشّحط بينهن قتيلا

يقول ابن القيم : ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة ، وقلة العلم ، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد ، وحصول الهوى ، فهنالك الفتنة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، فقل ما شئت في ضلال سيء القصد ، الحاكم عليه الهوى لا الهدى ، مع ضعف بصيرته ، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله ، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ﴾ أ.هـ

قال تعالى ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

وأعظم عاصم من فتنة الشبهات : الاعتصام بالكتاب والسنة قولاً ، وعملاً ، قال تعالى ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ واحترام علم السلف ، والثقة به ، والرجوع إلى أهل العلم ، والاهتداء بهديهم .

قال الأوزاعي : عليك بآثار من سلف ، وإن رفضك الناس ، وإياك وآراء الرجال ، وإن زخرفوه لك بالقول ، فإن الأمر ينجلي وأنت على طريق مستقيم .

ومن روائع كلام ابن القيم في مفتاح دار السعادة : والشبهة وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له ، فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه ، بل يقوى علمه ويقينه بردها ، ومعرفة بطلانها ، ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه ، قدحت فيه الشك بأول وهلة ، فإن تداركها و إلا تتابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكاً مرتاباً .

والقلب يتوارده جيشان من الباطل : جيش شهوات الغي . وجيش شبهات الباطل .

فأيما قلب صغا إليها ، وركن إليها تشربها ، وامتلأ بها ، فينضح لسانه ، وجوارحه بموجبها .

فإن أشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك ، والشبهات ، والإيرادات ، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه ، وإنما ذلك من عدم علمه ، ويقينه ، وقال لي شيخ الإسلام ــ رضي الله عنه ــ وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد : لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة ، فيتشربها فلا ينضح إلا بها ، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها ، فيراها بصفائه ، ويدفعها بصلابته ، و إلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقراً للشبهات . أو كما قال .

فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك .

وإنما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها ، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل ، وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر ، فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس ، فيعتقد صحتها ، وأما صاحب العلم واليقين فإنه لا يغتر بذلك ، بل يجاوز نظره إلى باطنها ، وما تحت لباسها فينكشف له حقيقتها .

ومثال هذا : الدرهم الزائف ، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد نظراً إلى ما عليه من لباس الفضة ، والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك ، فيطلع على زيفه .

فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف ، والمعنى كالنحاس الذي تحته ، وكم قد قتل هذا الاغترار من خلق لا يحصيهم إلا الله .

وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر ، وتدبره رأى أكثر الناس يقبل المذهب ، والمقالة بلفظ ، ويردها بعينها بلفظ آخر ، وقد رأيت أنا من هذا في كتب الناس ما شاء الله ، وكم رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح أ.هــ

ومن علامات صاحب الشبهة أنه يأنس بغير الوحي أكثر من أنسه بالوحي ، وهؤلاء لهم نصيب من قول الله تعالى ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .

ومن علاماته أنه يأنس بالخصومات والنقاشات أكثر من أنسه بالعبادات ، وبالكلام المقرب للآخرة .

قال الإمام أحمد : بلغني عن ابن عيينة قال : حج أيوب ، وعمرو بن عبيد ، فطاف أيوب حتى أصبح ، وخاصم عمرو حتى أصبح .

ومن علاماته أنه يرد الحق ، ويستثقل أهله .

قال تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي[١] : (كتاب كشف الشبهات) .

اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة .

وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده ، فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين : وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً .

وآخر الرسل محمد ﷺ وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين .

خلاصة هذا المقطع : أن التوحيد الذي دعت إليه جميع الرسل ، وطولب به جميع الناس هو إفراد الله بالعبادة .

قوله [بسم الله الرحمن الرحيم] .

درج المصنفون من أهل العلم على البدء بالبسملة في مصنفاتهم ، وذلك لعدة أمور :

١. اقتداءً بكتاب الله عز وجل .

٢. تأسياً بسنة المرسلين ، فقد كان ﷺ يبدأ رسائله بالبسملة ،كما في حديث هرقل في الصحيحين ، وكما في صلح الحديبية. وقال تعالى عن رسالة سليمان إلى بلقيس : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

٣. فعل الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري .... ثمامة بن عبد الله بن أنيس أن أنساً حدثه أن أبا بكر كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين : (بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين ...) ثم ذكر مقدار الصدقة .

٤. طريقة العلماء في مؤلفاتهم : قال ابن عبد البر : قال بعضهم : يجب [٢] على كل شارع في التصنيف أربعة أمور : البسملة ، والحمدلة ، والصلاة على النبي ﷺ ، والتشهد .

وقال ابن حجر : استقر عمل المصنفين على البدء بالبسملة في كتب العلم .

وأما حديث (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر) فقال عنه الشيخ الألباني : ضعيف جداً [٣].

وكذلك حديث (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع) وفي رواية (بحمد الله) وفي رواية (بالحمد) وفي رواية (فهو أجذم) ضعفه الألباني . انظر إرواء الغليل ج١ ص٢٩ .

---

(١) وفي نسخة : وبه نستعين ، وعليه نتوكل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢) ليس المراد الوجوب الشرعي ، بل من حيث الصناعة والتأليف .

(٣) وقد حسن الحديث ابن الصلاح ، والنووي .

قوله [اعلم] .

هذه الكلمة يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة التي ينبغي للمتعلم أن يصغي إلى ما يلقى إليه بعدها .

قال الشيخ حافظ حكمي : هذه الكلمة يؤتى بها للاهتمام والحث على تدبر ما بعدها .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : وما قرره المصنف في هذا الكتاب حقيق بأن يصغى إليه غاية الإصغاء .

قوله [رحمك الله] .

هذه الجملة دعائية فيها تلطف ولين ، وسبق الكلام عليها في شرح الأصول الثلاثة ، وأنه لا بد للداعية من الجمع بين حسن اللفظ ، وحسن القصد .

قوله [أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة] .

عرف المؤلف التوحيد ببعض أفراده ، وهو توحيد الألوهية ، لأنه الذي حصلت به الخصومة بين الرسل وأقوامهم .

فالرسل لم يدعوا أقوامهم إلى إفراد الله بالخلق والرزق ونحو ذلك من أفراد الربوبية ، لأنهم مقرون بذلك ، بل دعوا أقوامهم إلى إفراد الله بالتوجه والعبادة .

وهذا التوحيد هو مدلول كلمة (لا إله إلا الله) مطابقة ، وإن كانت قد دلت على توحيد الربوبية ، والأسماء والصفات بطريق التضمن . أفاده الشيخ محمد بن إبراهيم .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : والمصنف كثيراً ما يعتمد هذه العبارة ، وهي أحسن التعارف وأخصرها .

وسبق تعريف التوحيد ، وذكر أقسامه عند شرح كتاب التوحيد .

قوله [وهو دين [1] الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده] .

فجميع الرسل الذين أرسلهم الله دعوا أقوامهم إلى توحيد الله ، وإفراده بالعبادة .

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .

فدعوة الرسل في التوحيد واحدة ، وفي الشرائع والأحكام مختلفة ، كما قال تعالى في شأن التوحيد ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .

وقال تعالى عن شرائع الرسل ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ .

وقال ﷺ : نحن الأنبياء أبناء علات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد . متفق عليه

وورد بلفظ (أولاد) وبلفظ (إخوة) .

قال ابن الأثير : أولاد العلات الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد ، أراد أن إيمانهم واحد ، وشرائعهم مختلفة [2] .

---

(١) الدين كل ما يدين – يعتقد – به الإنسان حقاً كان أم باطلاً . قال تعالى ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

(٢) فائدة : قال ابن كثير : كما أن إخوة الأخياف عكس هذا ، بنو الأم الواحدة من آباء شتى .

والإخوة الأعيان : الأشقاء من أب واحد ، وأم واحدة .

....

– **قوله [فأولهم نوح]** قال تعالى ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ .

وفي حديث الشفاعة يقول الناس لنوح (أنت أول الرسل إلى أهل الأرض) متفق عليه (١) .

وأما قبل نوح فكان الناس كلهم على التوحيد ، وإن حصل فيهم تقصير وذنوب ، **وأول شرك حصل في الأرض** كان في قوم نوح .

كما جاء عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام (٢) .

قال ابن كثير في قصص الأنبياء : وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس في الضلالة والكفر ، فبعثه الله رحمة للعباد ، فكان أول رسول إلى أهل الأرض ، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة .

---

(١) **مسألة** : اختلف العلماء في آدم هل هو رسول أم نبي فقط ، وأكثر العلماء على أنه نبي ، لحديث الشفاعة حيث يقول الناس لنوح (أنت أول الرسل إلى أهل الأرض) متفق عليه . ورجح ابن حجر ، وحافظ حكمي أن آدم عليه السلام رسول .

مسألة : اختلف العلماء في إدريس عليه السلام هل كان قبل نوح أم بعده ، أم هو من أنبياء بني إسرائيل .

والذي عليه أهل التاريخ أن إدريس قبل نوح ، قال الطبري في تفسيره : وأما أهل الأنساب فإنهم يقولون : إدريس جد نوح .

وهذا الذي اختاره ابن تيمية وابن كثير وغيرهم ، وهو ظاهر اختيار البخاري .

قال البخاري : باب ذكر إدريس عليه السلام ، وهو جد أبي نوح ، ويقال : جد نوح عليهما السلام .

وفي الباب الذي قبله قال رحمه الله : يُذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس .

قال ابن حجر : وكأن المصنف رجح عنده كون إدريس ليس من أجداد نوح ، فلهذا ذكره بعده .

قلت : ليس بظاهر أبداً .

وذهب القرطبي إلى أنه من أنبياء بني إسرائيل ، لحديث الإسراء الآتي ، وكذلك اختار شيخنا ابن عثيمين أنه بعد نوح ، لقوله تعالى ﴿ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ وحديث الشفاعة حيث ذكر الناس أن نوحاً أول الرسل .

قال ابن حجر : وقد أخذ أبو بكر بن العربي من هذا أن إدريس لم يكن جداً لنوح ، وإنما هو من بني إسرائيل ، لأن إلياس قد ورد أنه من بني إسرائيل ، واستدل على ذلك بقوله عليه السلام للنبي ﷺ (مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح) ولو كان من أجداده لقال له كما قال له آدم وإبراهيم (والابن الصالح) وهو استدلال جيد إلا أنه قد يجاب عليه بأنه قال ذلك على سبيل التواضع والتلطف ، فليس ذلك نصاً كما زعم أ.هـ

وقال ابن كثير في قصص الأنبياء : وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح ، بل في زمان بني إسرائيل . قال البخاري : ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس . واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء : أنه لما مرّ به عليه السلام قال له : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، و لم يقل كما قال آدم وإبراهيم : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح ، قالوا : فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قالا له .

وهذا لا يدل ولابد ، لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيداً ، أو لعله قاله على سبيل الهضم والتواضع ، و لم ينتصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي البشر ، وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن ، وهو أكبر أولي العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين أ.هـ

وقال ابن تيمية في كتاب النبوات عن نوح : وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بُعث إلى أهل الأرض ، وقد كان قبله أنبياء كشيث ، وإدريس ، وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً .

وقال ابن حجر : ونقل بعضهم الإجماع على أنه جد لنوح ، وفيه نظر ، لأنه إن ثبت ما قال ابن عباس أن إلياس هو إدريس لزم أن يكون إدريس من ذرية نوح ، لا أن نوحاً من ذريته لقوله تعالى في سورة الأنعام (ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان...إلى أن قال ...وعيسى وإلياس) فدل على أن إلياس من ذرية نوح ، سواء قلنا إن الضمير في قوله (ومن ذريته) لنوح أو لإبراهيم ، لأن إبراهيم من ذرية نوح أ.هـ

(٢) وقد نسب غير واحد هذا الأثر إلى صحيح البخاري ، وأظنهم تبعوا في ذلك ابن كثير ، حيث نسبه في قصص الأنبياء للبخاري ، والصحيح أنه ليس في البخاري ، لكن رواه ابن جرير في تفسيره ، والحاكم ، وقال الحاكم : على شرط البخاري ، ووافقه الذهبي ، والألباني .

–وأما القرن فقد اختلف في معناه : هل هو مائة سنة ، أو أقل ، أو أكثر ، أو المراد به الجيل الذين يكونون في زمن واحد .

....

وذكر ابن كثير أن **أول من عبد الأصنام بعد الطوفان** هم قوم هود ، وهم عاد الأولى ، وهم قوم من العرب جفاة سكنوا الأحقاف ، وهي جبال الرمل ، قال ابن كثير : وكانت باليمن بين عُمان وحضرموت .

وذكر رحمه الله أن ذلك بين في قول هود لهم ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ .

ثم تتابعت الرسل حتى بعث الله إبراهيم عليه السلام ، ومنذ أن بعث الله نبيه إبراهيم عليه السلام وأمره ببناء البيت على التوحيد ، واستوطنت ذريته مكة ، ومعظم العرب يدينون بدينه ، ويتبعون ملته ، فكانوا يعبدون الله ويوحدونه ، ويلتزمون بشعائر دينه الحنيف ، وظل الحال على ذلك قروناً من الزمان حتى بدأ الانحراف يدب إليهم مع طول العهد وتقادم الزمن[1] .

وكان أول من غير ملة إبراهيم ودعا إلى عبادة الأصنام ، عمرو بن لحي الخزاعي ، حين قدم بلاد الشام فرآهم يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله ، فاستحسن ذلك وظنه حقاً ، وكانت الشام آنذاك محل الرسل والكتب السماوية ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنماً يقال له (هُبل) فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة ، لأنهم ولاة البيت ، وأهل الحرم ، حتى انتشرت الأصنام بين قبائل العرب .

وقد ذُكر عنه أنه كان له رئي من الجن ، فأخبره أن أصنام قوم نوح ــ ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا ــ مدفونة بجدة ، فأتاها فاستثارها ، ثم أوردها إلى تهامة ، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل ، فذهبت بها إلى أوطانها ، فأما ود : فكانت لكلب ، بجَرَش بدَوْمَة الجندل من أرض الشام مما يلي العراق ، وأما سواع : فكانت لهذيل بن مُدْرِكة بمكان يقال له : رُهَاط من أرض الحجاز ، من جهة الساحل بقرب مكة ، وأما يغوث : فكانت لبني غُطَيف من بني مراد ، بالجُرْف عند سبأ ، وأما يعوق : فكانت لهمدان في قرية خَيْوان من أرض اليمن ، وخيوان : بطن من همدان ، وأما نسر : فكانت لحمير لآل ذى الكلاع في أرض حمير .

---

(١) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : ومنذ ظهر إبراهيم لم يعدم التوحيد في الأرض ، كما قال تعالى ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ .

....

قال ابن كثير : عمرو هذا هو ابن لحي بن قَمَعَة ، أحد رؤساء خزاعة ، الذين ولَوا البيت بعد جرهم . وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل ، فأدخل الأصنام إلى الحجاز ، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها ، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها ، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ إلى آخر الآيات في ذلك أ.هـ

وكان عمرو بن لحي من ملوك الحجاز ، وكان في أول أمره رجلاً صالحاً ناسكاً .

ولذا ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الفوائد : أن الردة وعبادة الأصنام قد يكون سببها فعل بعض الصالحين ، والتفطن لما أعطي عمرو من الأعمال ، ومن الكمال ، ومن الملك ، ومن طاعة الناس له . الدرر السنية ج٢ ص١٤٧ .

وقد وردت عدة أحاديث في ذم عمرو بن لحي ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة أبا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار . متفق عليه

وفي البخاري عن عروة أن عائشة رضي الله عنه ها قالت : قال رسول الله ﷺ : رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ، ورأيت عمراً يجر قصبه ، وهو أول من سيب السوائب .

وأول ما ظهرت المشاهد والقبور في أمة محمد ﷺ **في آخر المائة الثالثة على أيدي الروافض .**

وقد كانت بلاد المسلمين في عافية من كل هذا الخرافات منذ انتشرت دعوة التوحيد على يد آخر الرسل ﷺ .

يقول ابن تيمية : و لم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم من ذلك شيء في بلاد الإسلام ، لا في الحجاز ، ولا اليمن ، ولا الشام ، ولا العراق ، ولا مصر ، ولا خراسان ، ولا المغرب ، و لم يكن قد أحدث مشهد ، لا على قبر نبي ، ولا صاحب ، ولا أحد من أهل البيت ، ولا صالح أصلاً ، بل عامة هذه المشاهد محدَثة بعد ذلك ، وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس ، وتفرقت الأمة ، وكثر فيهم الزنادقة الملبّسون على المسلمين ، وفشت فيهم كلمة أهل البدع ، وذلك من دولة المقتدر في أواخر المائة الثالثة ، فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القدّاحية في أرض المغرب ، ثم جاؤوا بعد ذلك إلى أرض مصر .

ويقول رحمه الله : و لم يكن في العصور المفضلة مشاهد على القبور ، وإنما كثر بعد ذلك في دولة بني بويه لما ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب ، وكان بها زنادقة كفار مقصودهم تبديل دين الإسلام ، وكان في بني بويه من الموافقة لهم على بعض ذلك أ.هـ

....

قوله [لما غلوا في الصالحين .....] .

الغلو في الأشخاص : مجاوزة الحد قدحاً أو مدحاً . ودليل غلوهم يأتي الآن من كلام ابن عباس .

وقد بوب المؤلف في كتاب التوحيد (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين) وذكر النصوص على ذلك .

قوله [وآخر الرسل محمد ﷺ] والدليل قوله تعالى ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (١) .

قوله [وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين] .

جاء عند مسلم عن ابن مسعود قال : دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصباً ، فجعل يطعنها بعود في يده وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد .

فهو ﷺ كسر الأصنام التي حول الكعبة بيده ، و أرسل من يكسر الأصنام في بعض المواضع ، و أمر بتكسير الأصنام في كل مكان ، وعليه فمراد المؤلف بقوله (كسر صور هؤلاء الصالحين) أنه أمر بتكسيرها ، لأن هذه الأصنام لم تكن من الأصنام التي كانت حول الكعبة ، ولا داخل الكعبة .

فيكون مراد المؤلف : أنه ﷺ أمر بتكسيرها ، كما يقال : الملك بنا هذا القصر . والمراد : أمر ببنائه .

فقد جاء في البخاري عن ابن عباس قال : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب ، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير ، لآل ذي الكلاع ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت .

قال ابن تيمية : وهذه الأوثان التي عند العرب إن لم تكن بأعيانها ما عند قوم نوح ، وإلا فهي نظائرها .

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في فوائد قصة الشرك الذي حصل في الأرض : كون صور الصالحين يبعث عليها أول الرسل ، و لم يكسرها إلا خاتم الرسل . الدرر السنية ج٢ص١٤٨.

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : فانظر إلى آثار الشرك وعروقه إذا علقت متى تزول وتنمحي ؟ فإن هذه الأصنام بقيت من يوم عبدت من دون الله حتى بعث محمد ﷺ وكسرها .

وقال أيضاً : فيفيدك عظم الشرك إذا خالط القلوب صعب زواله ، كيف أن أصناماً عبدت على وقت أول الرسل وما كسرها إلا آخرهم .

---

(١) وقد صح أن عيسى عليه السلام يترل آخر الزمان ، فكيف يكون محمد ﷺ خاتم النبيين ؟

أجاب العلماء على ذلك بعدة أجوبة ، أقربها :

أ. المقصود أن شريعة محمد ﷺ خاتمة الشرائع ، لأن عيسى إذا نزل حكم بشريعة القران لا بشريعة الإنجيل .

ب. أن عيسى عليه السلام يترل عبداً متبعاً لشريعة محمد ﷺ لا رسولاً نبياً .

أرسله الله إلى أناس يتعبدون ، ويحجون ، ويتصدقون ، ويذكرون الله ، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقين وسائط بينهم وبين الله – عز وجل– يقولون : نريد منهم التقرب إلى الله تعالى ، ونريد شفاعتهم عنده ، مثل : الملائكة ، وعيسى ، ومريم ، وأناس غيرهم من الصالحين .

فبعث الله تعالى محمداً ﷺ يجدد لهم دينهم دين أبيهم إبراهيم ، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله تعالى ، لا يصلح منه شيء لغيره ، لا لملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، فضلاً عن غيرهما .

وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له ، وأنه لا يرزق إلا هو ، ولا يحي ولا يميت إلا هو ، ولا يدبر الأمر إلا هو ، وأن جميع السماوات السبع ومن فيهن ، والأرضين السبع ومن فيها كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره .

فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون بهذا فأقرأ عليه ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ ﴾ الآية ، وقوله تعالى ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا ﴾ إلى قوله ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

خلاصة هذا المقطع : بيان حال كفار قريش اعتقاداً وعملاً .

أولاً : اعتقاد كفار قريش :

١.**في الربوبية** : كان عندهم إقرار مجمل بهذا النوع من التوحيد ، فأكثرهم يقر بأكثر أفراد هذا النوع من التوحيد .

والأدلة على ذلك كثيرة جداً ، منها ما ذكره المؤلف هنا .

وإن كان يوجد عند بعضهم إنكار لبعض أفراد الربوبية ، كنسبة إيجاد الخير والشر لغير الله ، وكإنكار البعث ، وغير ذلك . وسبق في شرح القواعد الأربع بيان حقيقة إقرار الكفار بالربوبية .

٢.**في الأسماء والصفات** : كان عندهم إقرار مجمل بهذا النوع من التوحيد ، فكانوا يصفون الله بصفات الكمال المستقرة بداهة في الفطر : كالقدرة ، والخلق ،......... وكثير من أفراد الربوبية ، كما كانوا يثبتون صفات الكمال لله ، كالعلم ، والعزة ، كما قال تعالى عنهم ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ .

ومن ذلك إثبات العلو لله عز وجل ، وأنه في السماء ، كما في قوله تعالى ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ .

وقال عنترة : يا عبل أين من المنية مهربي إن كان ربي في السماء قضاها

ومن هذا الباب قول زهير : فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

فأثبت العلم لله .

....

قال الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد : والكفار يقرون بجنس هذا النوع ، وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك ، إما جهلاً وإما عناداً ، كما قالوا : لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، فأنزل الله ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ .

قال ابن كثير : والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم ، فإنه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية الله بالرحمن . قال الشاعر : وما يشأ الرحمن يعقد و يطلق .

وقال الآخر : ألا قضب الرحمن ربي يمينها . وهما جاهليان(١) .

وقال في فتح المجيد : ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد ، إلا في اسم الرحمن خاصة ، ولو كانوا ينكرونه لردوا على النبي ﷺ ذلك ، كما ردوا عليه توحيد الألوهية أ.هـ

وهذا كلام عظيم جدًا ينفع في الرد على المعطلة .

لذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : لكن الكفار أعقل ممن أنكر الصفات .

كما كان عند بعضهم إيمان بالبعث والحساب ، كما قال زهير :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وإن كان الأكثر على إنكار البعث ، كما في آيات كثيرة من كتاب الله ، كقوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ بل هذا الأمر من أخص ما أنكره أهل الجاهلية .

وكان عند بعضهم إيمان بالقدر ، كما في قول عنترة :

يا عبلُ أين من المنية مهربي إن كان ربي في السماء قضاها

٣ . **في الألوهية :** لم يكن عندهم إنكار لاستحقاق الله للعبادة ، بل كانوا يصرفون كثيراً من الأعمال لله كما يأتي ، ولكن كانت عندهم مشاركة في العبادة ، فلم يكن كفرهم في هذا النوع كفر **تعطيل** ، وإنما كفر **تشريك** ، قال تعالى ﴿ فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ .

قال في تيسير العزيز الحميد : ولفظ الشرك يدل على أن المشركين كانوا يعبدون الله ، ولكن يشركون غيره من الأوثان .

---

(١) وأول البيت : عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد و يطلق .
وأول البيت : ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمن ربي يمينها

ثانياً : أعمال كفار قريش :

كان عند كفار قريش أعمال قلبية وعملية يتقربون بها إلى الله ، ومنها :

١ . **الدعاء** : قال تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... ﴾ .

٢ . **الصلاة** : كما جاء عند مسلم عن أبي ذر ﷺ قال : وقد صليت يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين . قلت : لمن ؟ قال : لله . قلت : فأين توجه ؟ قال : أتوجه حيث يوجهني ربي .

٣ . **الحج** : كما جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ بعث من ينادي في الناس ألا يحج بعد العام مشرك .

وما جاء في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك .

٤ . **الصوم** : كما جاء في الصحيحين أن قريشاً كانت تصوم عاشوراء في الجاهلية .

٥ . **الاعتكاف** : كما في حديث عمر : إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام ، فقال له النبي ﷺ : أوف بنذرك . متفق عليه

٦ . **الإنفاق** : قال تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ ... ﴾ وقال تعالى﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ ... ﴾ .

٧ . **الطهارة** : كما في قصة امرأة كانت مع زوجها في سفر وكان معهما ماء قليل ، فلما كانت في السفر انقطع عنها الحيض فأرادت أن تغتسل ، فأخذت الماء فاغتسلت به وكان قليلاً فلم يبلغ أن يعممها وبقيا عطاشاً ليس معهما ماء ، وقيل : إنهما هلكا في ذلك ، فضرب بهما مثل في هذا ، وقد قال في ذلك الفرزدق في بعض أبيات نسبت إليه ، قال يذم رجلاً :

وكنت كذات الحيض لم تبق ماءها ... ولا هي من ماء العذابة طاهر

قال السهيلي عن الغسل : كان معمولاً به في الجاهلية من بقايا دين إبراهيم ، كما بقي فيهم النكاح والحج .

وقال ابن تيمية : كان مشروعاً قبل .

٨ . **أعمال الخير عموماً** : كالصدقة ، وصلة الرحم ، والإحسان إلى الجار ، وعتق الرقاب وغير ذلك ، كما جاء عند مسلم من حديث عائشة قالت : يا رسول الله : ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه ؟ قال : لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين .

وجاء عند مسلم أيضاً عن عروة بن الزبير أن حكيم بن حزام ﷺ أخبره أنه قال لرسول الله ﷺ : أرأيت أموراً كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة وعتاقة وصلة رحم أفيها أجر ؟ قال ﷺ : أسلمت على ما أسلفت من خير .

وهذه الأعمال ورثوها من بقايا دين إبراهيم ، قبل أن يدخل عليهم عمرو بن لحي الخزاعي الشرك ...فبقيت هذه الأعمال مع وجود الشرك فيهم .

إذا تحققتَ أنهم مقرون بهذا ، وأنه لم يدخلهم في التوحيد الذي دعت إليه الرسل ، ودعاهم إليه رسول الله ﷺ ، وعرفتَ أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة ، الذي يسميه المشركون في زماننا(الاعتقاد)[١] وكانوا يدعون الله سبحانه وتعالى ليلاً ونهاراً [٢] .

ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله عز وجل ليشفعوا لهم ، أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللات ، أو نبياً مثل عيسى ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك ، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى ﴿ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ وقال تعالى ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ الآية ، وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله ، والذبح كله لله ، والنذر كله لله ، والاستغاثة كلها بالله ، وجميع أنواع العبادة كلها لله ، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام ، وأن قصدهم الملائكة ، أو الأنبياء ، أو الأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم .

عرفتَ حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل ، وأبى عن الإقرار به المشركون .

خلاصة هذا المقطع : بيان الأمر الذي أحل دماء كفار قريش وأموالهم ، وهو الخلل في توحيد العبادة ، وجعل الوسائط والشفعاء بينهم وبين الله .

بعد أن بين المؤلف في المقطع السابق حال كفار قريش اعتقاداً وعملاً ، بين هنا جانب الخلل عندهم ، وأن إقرارهم أو أكثرهم بتوحيد الربوبية أو أكثر أفراده لم يدخلهم في الإسلام ، وكذلك الأعمال الكثيرة المتنوعة التي كانوا يتقربون بها إلى الله لم تدخلهم في الإسلام [٣] ، والسبب في ذلك : إخلالهم بتوحيد الألوهية ، وصرف أنواع العبادات لغير الله كالذبح والنذر والاستغاثة ، وجعل الوسائط والشفعاء لله .

قال ابن تيمية : من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك ، بل هذا دين المشركين عباد الأوثان كانوا يقولون : إنها تماثيل الأنبياء والصالحين ، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله ، وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى أ.هـ

وقال تعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فسمى اتخاذ الشفعاء شركاً ، كما سمى ذلك عبادة في أول الآية . وقال الشيخ سليمان بن عبد الله : فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم ، وسبي نسائهم ، وإباحة أموالهم ، مع هذا الإقرار والمعرفة ، وما ذاك إلا لإشراكهم في توحيد العبادة ، الذي هو معنى لا إله إلا الله .

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : يقولون (فلان فيه عقيدة) يعني : يصلح أن يعتقد فيه أنه ينفع .

(٢) لعل مراد الشيخ والله أعلم أن لهم عبادات بالليل ، وعبادات بالنهار ، و لم يقصد مواصلتهم العبادة ليلاً ونهاراً .

(٣) ولذا قال رحمه الله في القواعد الأربع : اعلم أن العبادة لا تسمى عبادة ــ يعني معتبرة ومقبولة ــ إلا مع التوحيد ، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة ، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة .

وهذا التوحيد هو معنى قولك (لا إله إلا الله) فإن (الإله) عندهم هو الذي يقصد لأجل هذه الأمـــور ، سواءً كان ملكاً ، أو نبيـــا ، أو ولياً ، أو شجرةً ، أو قبراً ، أو جنيـــاً ، لم يريدوا أن (الإله) هو الخـــالق الرازق المدبر ، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده ، كما قدمت لك ، وإنما يعنون بــــ(الإلـــه) مـــا يعـــني المشركون في زماننا بلفظ (السيد) فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد ، وهي لا إله إلا الله .

خلاصة هذا المقطع : بيان حقيقة معنى الإله ، و بيان أن الكفار الأولين أعلم من المشركين المتأخرين بمعنى (لا إله إلا الله) ، ولذلك أنكروا قبولها بعد العلم بمعناها ومقتضاها ، وأما المتأخرون فادعوها بأفواههم وكفروا بها بأفعالهم ، وأقوالهم .

يبين المؤلف هنا أن المشركين عرفوا معنى (الإله) كما هو ، وأنه الذي يقصد بالعبادة والتوجه ، وهو : المقصود بجلب النفع ودفع الضر ، وهو المدعو المرجو ، المعتمد عليه ، وليس معناه عندهم الرب .

وهذا المعنى أجمع عليه أهل السنة والجماعة ، وأما غيرهم من الجهمية ، والأشاعرة ، والقبورية من الصوفية ، والرافضة ، فالإله عندهم بمعنى : الرب ، ففسروا توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية .

والسبب في هذا الفهم المغلوط هو تأثرهم بكتب الفلسفة والمنطق والنظر فيها ، ولذا تجد في كتب هؤلاء من يعرف(الإله) بأنه : القادر على الاختراع . ومنهم من يعرفه بأنه : المستغني عما سواه ، والمفتقر إليه كل ما عداه [1] ، ومنـــهم مـــن يعرفه بأنه واحد في ذاته لا قسيم له ، واحد في صفاته لا شبيه له ، واحد في أفعاله لا شريك له .

وهذه المناهج الدراسية في دول العالم الإسلامي اليوم شاهدة على ذلك ، والله المستعان .

وهذا الخلل العظيم في هذا الفهم هو الذي أنتج الخلل في النتيجة ، حيث قصروا الشرك على الشرك في الربوبية ، ولذا تجد كثيراً منهم يتوجهون إلى غير الله من الأحياء والأموات يرجوهم ويخافوهم ويذبحون لهم ويستغيثون بهم ، إلى غير ذلك من الأمور المنافية لأصل التوحيد .

وكفار قريش فهموا أن تلك الأمور هي التي دعاهم النبي ﷺ إلى صرفها لله وحده ، ولذا عارضوه وكفروا به ، فلما قال لهم ﷺ (قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا) قالوا ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً ﴾ فسموا من تصرف له تلك الأمور (آلهة) ــ وهي كذلك ــ وأما المتأخرون فصرفوا تلك الأمور لغير الله ، لكنهم لم يسموا الذي صرفوا له (آلهة) بل زخرفوا القول ، فبعضهم يسميه (السيد) كما في نجران وحضرموت واليمن [2] ، وبعضهم يسميه (الولي) كما عند أهل مصر ، وبعضهم يسميه (السر) أو (الذي فيه السر) [3] وبعضهم يسميه (الشيخ) .

ومعنى هذه الألفاظ المتباينة في المبنى ، المترادفة في المعنى أن (السيد) أو (الولي) أو (الشيخ) أو (السر) يصلح أن يُدعى و يُرجى ويُخاف منه ويُتوكل عليه ويُذبح له ، وتُصرف له أنواع من العبادات ، وأن الله جعل لخواص خلقه منزلة يرضى أن الإنسان يلتجئ إليهم ويرجوهم ويستغيث بهم ويجعلهم واسطة بينهم وبين الله ، ويستغاث بهم في الشدائد ويرجون في النوازل ويحلف بأسمائهم وينحر لهم .... الخ . إذن فماذا بقي لله ؟!! والله المستعان .

---

(١) وهذا التعريف جاء في كتاب السنوسية المسماة أم البراهين ، في عقائد الأشاعرة ، والتي تدرس اليوم في الأزهر .

(٢) كما يقال : السيد البدوي ، السيد الحسين ، السيدة زينب ، السيد العيدروس ، السيد المرغني .

(٣) لأنهم يعتقدون أن لروحه سراً ، ولذا يقولون : قدس الله سره . وفي الأمثال المنتشرة (يوضع سره في أضعف خلقه) والمفهوم من كلمة (سره) أنها القدرة المســـتندة إلى أسباب غيبية ، ومحيرة ، وأضعف خلقه مقصود بهم : المجانين ، والمجاذيب ، والأطفال . من كتاب (دمعة على التوحيد) .

....

وهذا هو فعل المشركين الذين سماهم الله مشركين ، قال تعالى ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ .

قال ابن تيمية : من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك ، بل هذا دين المشركين عباد الأوثان .... وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى .

وقال محمد بن عبد الوهاب : والعرب الأولون يسمون الألوهية ما يسميها عوامنا (السر) لأن السر عندهم هو القدرة على النفع والضر ، وكونه يصلح أن يُدعى ويُرجى ويُخاف ويُتوكل عليه .

إذاً حقيقة معنى (لا إله إلا الله) لا إله يُقصد غير الله ، وهذا الذي فهمه المشركون ، وهو الحق ، ولذلك لما أنكروا وخالفوا هذا المعنى دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد ، فدل أنهم كانوا غير موحدين ، فمن فعل فعلهم من المتأخرين بأن قصد غـــير الله أو جعله واسطة فهو مشرك بالله العظيم ، وإن كان غير اللفظ وبدله وزخرفه مادام المعنى موجوداً ، نسأل الله السلامة .

والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها ، والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو : إفراد الله تعالى بالتعلق ، والكفر بما يعبد من دونه ، والبراءة منه ، فإنه لما قال لهم (قولوا : لا إله إلا الله) قالوا ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ .

فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرف جهال الكفار ، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني ، والحاذق منهم يظن أن معناها : لا يخلق ، ولا يرزق ، ولا يدبر إلا الله .

فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعاني لا إله إلا الله .

خلاصة هذا المقطع : بيان أحوال الناس في معنى لا إله إلا الله .

يذكر المؤلف هنا مسألة مهمة وهي بيان معنى (لا إله إلا الله) إذ فهم معنى هذه الكلمة من أهم الأمور ، فهي البوابة لدخول الإسلام والجنة ، وهي البوابة للخروج من الإسلام إلى النار ، ولذلك لابد من فهمها فهماً صحيحاً ، وإن كثيراً من الطوائف لم تفهم معنى هذه الكلمة الفهم الصحيح ، أو فهمت وخالفت ذلك عناداً واستكباراً .

والأصناف التي خالفت في معنى هذه الكلمة كثيرة ، وقد ذكر المصنف بعضاً منها ، وهم :

١ . من فهم معنى هذه الكلمة فهماً تاما ، ولكنهم عاندوا في تحقيقها ، وهؤلاء هم كفار قريش ، فقد كانوا يعلمون أن مجرد اللفظ لا يكفي ، وأنه لابد من اعتقاد معناها ، والعمل بمقتضاها ، وعلموا أن معناها لا معبود بحق إلا الله ، ولا يجوز التعلق بغير الله ، ولهذا لم يقولوها ، لأنهم يعتقدون أن غير الله يستحق العبادة .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : فإن أبا جهل وأضرابه لو يعلمون أن هذا هو المراد لما تلعثموا في قولها ولا نازعوا ، وكذلك لو فهموا أن المراد الربوبية لسارعوا إلى ذلك و لم ينازعوا ، لكن علموا أن معناها أن يكون الإله المعبود هو الله وحده دون كل ما سواه ، والتبري مما سواه ، وأنه لا بد من اعتقاد ذلك ووجوده في العمل ، وأنها تُبطل جميع ما هم عليه من دين آبائهم وأجدادهم .

٢ . من يعتقد أن من تلفظ بهذه الكلمة لم يكفر ، فمن نطق بها فهو مسلم ، ويأتي الرد مطولاً على هذه الشبهة إن شاء الله (١) .

٣ . من فهم من معنى الألوهية معنى الربوبية ، فلا إله إلا الله . تعني : لا رب إلا الله ، ولا يخلق إلا الله ولا يقدر على الاختراع إلا الله ، وهؤلاء هم المتعلمون الجهال أهل الفلسفة والمنطق والكلام ، ويشمل الأشاعرة ، والجهمية ، والرافضة ، والباطنية ، والصوفية ، وهؤلاء ادّعوا التوحيد ، ورموا بالشرك من ظن في الأموات تدبيراً ، أو إيجاداً ، أما الاستغاثة بهم ، ودعاءهم ، والذبح لهم فليست شركاً ، نسأل الله العافية . ويأتي الرد على هذه الشبهة إن شاء الله .

وعليه يكون النبي ﷺ قاتل أناساً موحدين ، لأن كفار قريش كانوا يقرون جملة بأفراد الربوبية .

---

(١) ويدخل في هذا اعتقاد الكرامية حيث يرون أن من نطق بالشهادة فهو مؤمن كامل الإيمان . ومرادهم في أحكام الدنيا ، ويأتي الرد عليهم في شرح الواسطية في مبحث الإيمان إن شاء الله .

....

وأسعد الناس بفهم معنى هذه الكلمة هم أهـــل السنة والجماعة المتبعين للأثر ، حيث أعطوا هذه الكلمة العظيمة حقها من الفهم ، فقالوا : لا بد فيها من اجتماع الاعتقاد والقول والعمل ، ولا بد من اجتماع شروطها ، والبعد عن نواقضها ، فمن أخل بشيء من ذلك صار كافراً في حكم الشرع ، وإن ردد مراراً : لا إله إلا الله .

وفهم هذا المعنى من أهم المسائل ، والله المستعان .

إذا عرفت ما قلت لك معرفة قلب ، وعرفت الشرك بالله الذي قال الله فيه ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ الآية ، وعرفت دين الله الذي بعث به الرسل من أولهم إلى آخرهم ، الذي لا يقبل الله من أحد سواه ، وعرفت ما أصبح غالب الناس عليه من الجهل بهذا ، أفادك فائدتين :

الأولى : الفرح بفضل الله ورحمته ، كما قال تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ الآية .

وأفادك أيضاً : الخوف العظيم ، فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه ، وقد يقولها وهو جاهل ، فلا يعذر بالجهل [1] ، وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله كما ظن الكفار ، خصوصاً إن ألهمه الله ما قص عن قوم موسى عليه السلام مع صلاحهم وعلمهم أنهم أتوه قائلين ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ فحينئذ يعظم خوفه وحرصه على ما يخلصه من هذا وأمثاله .

خلاصة هذا المقطع : أهمية معرفة وتعلم التوحيد ، والحذر والخوف من الوقوع في الشرك .

بعد أن بين المؤلف في المقطع السابق انحراف بعض الطوائف في فهم كلمة التوحيد ، نبه الموحد هنا على وجوب تعلم التوحيد ، حتى لا يقع في ما وقع فيه أولئك الضالون ، ونبهه كذلك إلى وجوب الخوف من الشرك ، وأن الإنسان لا يغتر بكونه يعلم التوحيد ، فإن الإنسان قد يكون مع علمه وصلاحه يقع في الشرك وهو لا يدري ، كما حصل لقوم موسى ، حيث أنهم كانوا أحسن الناس في وقتهم صلاحاً وعلماً ، ومع هذا حصل منهم ما حصل[2] .

والخوف من الشرك مع معرفة التوحيد هو طريق المرسلين ، فإمام الموحدين إبراهيم عليه السلام الذي كسر الأصنام بيديه يقول ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ .

قال إبراهيم التيميّ : ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم . رواه ابن جرير .

وقد عقد المؤلف باباً في كتاب التوحيد فقال : باب الخوف من الشرك .

وقال رحمه الله عند قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ : شدة الحاجة إلى تعلم التوحيد ، فإذا كان الأنبياء يحتاجون إلى ذلك ويحرصون عليه ، فكيف بغيرهم ، ففيها رد على الجهال الذين يعتقدون أنهم عرفوه فلا يحتاجون إلى تعلمه أ.هـ

فكم من عالم حارب الشرك وهو في أوحاله ، ودعا إلى التوحيد وهو يخالفه ، إما في قاعدة عامة ، أو في بعض القضايا ، نسأل الله العافية والسلامة .

---

(١) وهذه العبارة توهم أن الشيخ لا يعذر بالجهل مطلقاً ، وهناك عبارات عكس هذه ، توهم أن الشيخ يعذر بالجهل مطلقاً ، مثل قوله : إن الجاهل لا نكفره ، بل نعذره ، وهو من أهل الإسلام .

والصحيح أن الشيخ في هذه المسألة على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأنه لا يعذر بالجهل مطلقاً ، ولا ينفي العذر بالجهل مطلقاً . ويأتي الكلام على هذه المسألة المهمة في شرح نواقض الإسلام إن شاء الله تعالى .

(٢) والكلام عن قصة موسى سبق في شرح كتاب التوحيد .

....

وبعد أن بين المؤلف للقارئ ما سبق من : بيان دعوة الرسل جميعاً ، وبيان حال مشركي قريش ، وبيان حال الناس مع كلمة التوحيد ، ذكره بأمرين :

الأول : الفرح بفضل الله ، حيث عرفك التوحيد ، و لم يجعلك من الجاهلين .

قال ابن القيم في نونيته : واجعل لقلبك مقلتين كليهمـــا   من خشية الرحمن باكيتـــان

لو شاء ربك كنت أيضاً مثلهم   فالقلب بين أصابع الرحمـــن

والثاني : أن هذه المعرفة يجب أن يصاحبها الخوف من الشرك ، وهذا من تما م المعرفة بالتوحيد ، لأن الإنسان قـــد يقـــع في الشرك وهو لا يدري .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : ومن أسباب الخلوص من هذا الداء [1] العضال : التفتيش عن مبادئه ووسائله وذرائعه خشية أن تقع فيه وأنت لا تشعر ....ومن أسباب التخلص من هذا : صدق الابتهال إلى الله ، وسؤاله التثبيت ، وكثيراً ما كان رسول الله ﷺ يدعو بهذا الدعاء (اللهم يا مقلب القلوب والأبصار [2] ثبت قلبي على دينك) كما ابتهل الخليل عليه السلام إلى الله فقال (رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) أ.هـــ

---

(١) يقصد الشرك .

(٢) ليس في الحديث (والأبصار) .

وقد ورد في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك . رواه مسلم

وورد في حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : كان أكثر دعائه ﷺ : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن ، وصححه الألباني .

واعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء ، كما قال تعالى﴿ وَكَـذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ ﴾ الآية .

وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وحجج ، كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ الآية .

إذا عرفت ذلك ، وعرفت أن الطريق إلى الله لابد لـه من أعداء قاعدين عليه ، أهل فصاحة وعلم وحجج ، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحاً تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدمهم لربك عز وجل ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الآية .

ولكن إن أقبلت على الله تعالى ، وأصغيت إلى حجج الله وبيّناته فلا تخف ولا تحزن ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ .

والعامّي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ فجند الله تعالى هم الغالبون بالحجة واللسان ، كما هم الغالبون بالسيف والسنان ، وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح .

وقد من الله علينا بكتابه الذي جعله ﴿ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القران ما ينقضها ، ويبين بطلانها كما قال تعالى ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ قال بعض المفسرين : هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة .

خلاصة هذا المقطع : تحذير الموحد من أعداء التوحيد ، وبيان حالهم له .

بعد أن أرشد المؤلف في المقطع السابق الموحد إلى وجوب تعلم التوحيد ، والخوف من الشرك ، بين له هنا سببًا من الأسباب التي تصد عن هذه المعرفة ، وهم أعداء التوحيد ، القاعدين لأهله ، وبين له هنا عدة أمور :

١ . **أن هذه العداوة بين الحق والباطل سنة كونية** ، لا يكاد يسلم منها داعٍ إلى الله ، كما قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وفي الحديث الطويل في بداية الوحي ، قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ : إنه لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي . متفق عليه .. **ولهذه** السنة الكونية عدة حكم ، منها ما ذكره العلماء هنا :

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : وهذه حكمة بالغة ، ابتلاء الأخيار بالأشرار ليكمل للأخيار مراتب الجهاد .

وقال شيخنا : وذلك أن وجود العدو يمحص الحق ويبينه ، فإنه كلما وجد المعارض قويت الحجة .

وقال الشيخ صالح الفوزان : من أجل أن يمتحن الناس أيهم يتبع الأنبياء ، وأيهم يتبع دعاة الضلال .

فائدة : ذكر شيخنا أن هؤلاء المجرمين يعتدون على الرسل وأتباع الرسل بطريقين : التشكيك ، والعدوان .

ولذا قال تعالى ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ هادياً لمن يحصل له شك ، ونصيراً لمن يقع عليه عدوان . بتصرف

....

٢ . أن هؤلاء الأعداء على ضربين :

أ . جاهلون بما هم عليه ، وإنما يقلدون أسيادهم وأشياخهم في ذلك ، وهؤلاء هم الأكثر .

وهؤلاء لهم نصيب من قول الله تعالى عن الكفار ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ والآية التي تليها ﴿ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

ب . عندهم علم مغلوط ، يغالطون به الحق ، وشبه يدفعون بها الحق ، وهؤلاء قلة ، لكنهم هم الذين يحصل منهم الضرر والصد لأتباعهم ، وللموحدين(١) ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ الآية(٢) .

٣. أن الصنف الثاني منهم يعرض ما عنده من العلم والشبه بما يغري السامع ويشككه بما عنده بزخرف من القول ، وفصاحة تقلب الحق باطلاً ، والباطل حقاً .

قال مجاهد : ليس عند المشركين إلا شبهات وجهالات .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : لكنها ليست من الحجج الموروثة عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، إنما هي منامات وأكاذيب ، إذا جاء عند التحصيل فهي تخونهم أحوج ما يكونون إليها .

وقال ابن تيمية عند قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ : فأخبر أن جميع الأنبياء لهم أعداء ، وهم شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض القول المزخرف ، وهو المزين المحسن يغرون به ، والغرور : التلبيس والتمويه . وهذا شأن كل كلام وكل عمل يخالف ما جاءت به الرسل ..... ثم قال ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ فعلم أن مخالفة الرسل وترك الإيمان بالآخرة متلازمان ، فمن لم يؤمن بالآخرة أصغي إلى زخرف أعدائهم فخالف الرسل أ.هـ

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : قال بعضهم : إنه بدأ بشياطين الأنس ، لأنهم أعظم في هذا المقام من شياطين الجن ، لأن شيطان الإنس يأتي في صورة ناصح محب لين الجانب واللسان .

وقال أيضاً : فإذا كان الطريق الذي هذه صفته مقعود عليه ومرصود عليه بأنواع الصدوف ، وأنواع القيود ، وأنواع السلاح ، وأنواع الحجج والبينات ، وأنواع الكيد والمكر والخداع ، فكيف يأمن الإنسان ولا يخاف ؟!

---

(١) وهؤلاء منهم من يعتقد أن ما معه هو الحق ، ومنهم من يجادل بالباطل وهو يعلمه ، والعياذ بالله .

(٢) فانظر كيف سمى ما جاء به (بينات) لوضوحه وبيانه ، و سمى ما عندهم (علم) لأن العلم قد يكون نافعاً ، وقد يكون ضاراً لمعايير كثيرة .

....

٤ . بعد أن بين المؤلف طبيعة الطريق ، وخطورة أعداء التوحيد ، حيث يزخرفون الباطل حتى يصير كالحق بما عندهم من الشبهات والضلالات ، بين بعد ذلك سبيل النجاة ، والسلاح الذي يقاوم به أولئك ، وهو الإقبال على الله ، وعلى كتابه بتعلمه وفهمه ، إذ فيه رد لكل شبهة [(١)] .

وأنه إن تسلح بذلك فسيرى ضعف الباطل وهشاشته ، كما قال تعالى ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ وما أروع هذا التعبير الذي يبين حقيقة الأمر ، وقال تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ .

ثم بين حال الموحد الذي ليس معه سلاح العلم ، وأنه قد يفتن بذلك وينخذل والعياذ بالله ، كما هو واقع كثير من النـــاس اليوم الذين تأثروا بأطروحات المضللين في وسائل الإعلام وغيرها ، لعدم العلم الشرعي المؤصل عندهم .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكْسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه ، فإنه إذا قَبِل الباطل أحبّه ورضيه ، فإذا جاء الحق بخلافه ردّه وكذّبه إنْ قدِر على ذلك وإلا حرّفه .

وقال رحمه الله : فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق وتعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله أ.هـــ

---

(١) قال مسروق : ما أحد من أصحاب الأهواء إلا في القران ما يرد عليهم ، ولكنا لا نهتدي له .

وقال الشعبي : ما ابتدع أحد في الإسلام بدعة إلا وفي كتاب الله ما يكذبه .

وقال أحمد : لو تدبر إنسان القرآن كان فيه ما يرد على كل مبتدع وبدعته .

وقال ابن تيمية : فالقران قد دل على جميع المعاني التي تنازع الناس فيها دقيقها وجليلها .

ونقل ابن القيم في حادي الأرواح عن ابن تيمية قوله : أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله .

....

إشكال وجوابه : في كلام الشيخ عبارتين ظاهرهما التعارض ، واستشكلها بعض الشراح ، وهما قوله (والعامّي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين) وقوله (وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح) .

وأحسن جواب ما ذكره الشيخ محمد بن إبراهيم ، حيث ذكر أن المقصود بذلك العلم المجمل ، وأن العامي لو كان عنده علم بسيط وأدلة لغلب المبطلين ، والخوف على الذي ليس معه سلاح العلم ، فإنه يفتن [1] .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب حيث قال : وقد استدل بعض من يدعي العلم على مسألة تصرف الأولياء ، وأنهم يُدعون ، بقوله تعالى ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فقال بعض عوام المسلمين : إن كانت القراءة (يَرزقون) _ بفتح الياء _ فذلك متجه ، وإلا فالآية حجة عليك .

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : (والعامي من الموحدين) الذي عرف أدلة دينه ، وإن كان ليس بفقيه ولا عالم ، ليس المراد العامي الجاهل ، اللهم إلا أن يوفق العامي الذي لا يعرف لحجة عقلية وهو نادر (يغلب الألف) بل الألوف (من علماء هؤلاء المشركين) ، لأن حجج المشركين ترهات وأباطيل ومنامات كاذبة ، وما كان معهم من الحق فهو رد في الحقيقة عليهم......(وإنما الخوف على الموحد) العابد لله المستقيم على التوحيد (الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح) يذب به عن دينه وهو الحجة والسلاح لم يتعلم أدلة دينه ، فهذا مخوف عليه أن يُقتل ، أو يُسلب ، أو يبقى أسيراً في يد عدوه الشيطان وجنوده ، يخشى عليه أن يلم به الشيطان وجنوده فيستزلونه عن الطريق السوي (وقد منَّ الله علينا بكتابه) الذي هو السلاح كل السلاح الأعظم (الذي جعله تبيانا لكل شيء وهدى وبشرى للمسلمين) .

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله تعالى في كتابه جواباً لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا ، فنقول: جواب أهل الباطل من طريقين : مجمل ، ومفصل .

أما المجمل فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها ، وذلك قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ الآيــة ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : إذا رأيتم الذين يتبعون المتشابه ويتركون المحكم فأولئك الذين سمى الله في كتابه فاحذروهم[١] .

مثال ذلك : إذا قال لك بعض المشركين ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُــمْ يَحْزَنُــونَ ﴾ أو أن الشفاعة حق ، أو أن الأنبياء لهم جاه عند الله ، أو ذكر كلاماً للنبي ﷺ يستدل به على باطله ، وأنــت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره ، فجاوبه بقولك : إن الله تعالى ذكر أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكــم ويتبعون المتشابه .

وما ذكرت لــك من أن الله ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية ، وأنه كفرهم بتعلقهم بالملائكة ، أو الأنبياء ، أو الأولياء ، مع قولهم ﴿ هَــؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ وهذا أمر محكم لا يقدر أحد أن يغير معناه .

وما ذكرته لي ــ أيها المشرك ــ من القرآن ، أو كلام رسول الله ﷺ لا أعرف معناه[٢] ، ولكن أقطــع أن كلام الله لا يتناقض ، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله عز وجل .

وهذا جواب جيد سديد ، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى ، ولا تستهونه فإنه كما قال تعالى ﴿ وَمَــا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : بيان الطريقة في رد شبه المخالفين .

من هنا بدأ المؤلف الكلام عن القسم الثاني من الكتاب ، فبعد أن أنهى الكلام عن المقدمة شرع في الكلام عــن صــلب الموضوع ، وهو الرد على شبه المخالفين ، وذكر أن الرد نوعان : رد مجمل ، ورد مفصل .

وذكر في هذا المقطع الرد المجمل فقط ، وذكر ثلاث شبه يستدل بها أهل الباطل على باطلهم ، ثم ذكر كيفية الرد المجمــل على تلك الشبه . قال شيخنا : وهكذا ينبغي لأهل العلم في باب المناظرة والمجادلة أن يأتوا بجواب مجمل حتى يشمل مــا يحتمل أن يورده الملبسون المشبهون ، ويأتي بجواب مفصل لكل مسألة بعينها .

---

(١) جاء في عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعد أن تلا قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَــابِهَاتٌ فَأَمَّــا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ قال رسول الله ﷺ : إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم . متفق عليه

(٢) قال الشيخ محمد بن إبراهيم في شرح قول المؤلف (لا أعرف معناه) : لا أعرف دلالته على ما قصدت .

وقال شيخنا : لا أعرف معناه الذي تدعيه ، وإنني أنكره ولا أقر به .

والأظهر والله أعلم أن المراد : لا أعرف الجواب عليه بعينه ، ولعل هذا مراد الشيخين .

....

وخلاصة هذه الطريقة أن نقول : إذا جاء المخالف بدليل صحيح يستدل به على باطله ، نقول له : إن أدلة الشرع لا تتعارض أبداً [(١)] ، قال تعالى ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً ﴾ وما أتيتَ به من الحق لخدمة الباطل أمر مشتبه ومشكل ، والأمر المحكم الواضح خلافه ، فأنا ألزم المحكم وأترك المتشابه ، لأن هذا هو طريق أهل الحق الذين وصف الله ، وأما طريقك فهو طريق أهل الزيغ الذين يتبعون المتشابه ، كما قال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ .

فالله سبحانه أمر بالرجوع إلى المحكم بقوله ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ يعني المرجع في الكتاب ، وهذا يقتضي تفسير المتشابه به وإرجاعه إليه حتى لا يحصل التناقض في كلام الله تعالى ، وأما أهل الزيغ فيتبعون الآيات المتشابهة يلبسون بها على الجهال .

قال ابن القيم : قسم الله سبحانه الأدلة السمعية إلى قسمين : محكم ، ومتشابه . وجعل المحكم أصلاً للمتشابه وأُمّاً له يُرد إليه ، فما خالف ظاهر المحكم فهو متشابه يرد إلى المحكم ، وقد اتفق المسلمون على هذا أ.هـ

فطريقة أهل الحق : إرجاع المتشابه إلى المحكم .

وطريقة أهل الباطل :

١. ترك المحكم واتباع المتشابه .

٢. عدم الرجوع إلى أهل العلم في فهم المتشابه .

وغالب المبتدعة والمخالفين يستدلون على باطلهم بالمتشابه .

قال مجاهد : ما من صاحب باطل وهوى إلا كانت حجته تعلقه بالمتشابه .

وهذا الرد المجمل مفيدٌ جداً في المناقشات ، ومن مزايا هذه الطريقة :

١. أنها تصلح للعوام وقليلي العلم ، وأما الرد المفصل فلا يكون إلا من طالب علم ، أو عالم .

٢. أنها عامة ، فتنفع لجميع الشبه والجهالات ، وأما الرد المفصل ، فكل شبهة لها رد خاص .

٣.أنها تلزم صاحب الشبهة ــ إن كان يدعي إرادة الحق ــ أن يحتج بالمحكم دون المتشابه ، ولذا يلزم الموحد أن يكون عنده قدر من علم ما هو عليه من الحق ، وأصول يرجع إليها .

---

(١) قال ابن تيمية : يجب أن يعرف أن أدلة الحق لا تتناقض ، فلا يجوز إذا أخبر الله بشيء ــ سواء كان الخبر إثباتاً أو نفياً ــ أن يكون في إخباره ما يناقض ذلك الخبر الأول ، ولا يكون فيما يعقل بدون الخبر ما يناقض ذلك الخبر المعقول ، فالأدلة المفضية للعلم لا يجوز أن تتناقض ، سواء كان الدليلان سمعيين ، أو عقليين ، أو كان أحدهما سمعياً والآخر عقلياً ، ولكن التناقض قد يكون فيما يظنه بعض الناس دليلاً وليس بدليل .

وقال رحمه الله : أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله .

وأما الجواب المفصل : فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة على دين الرسل يصدون بها الناس عنه .

منها قولهم : نحن لا نشرك بالله شيئاً ، بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا يحي ولا يميت ولا يدبر الأمر ولا ينفع ولا يضر إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلاً عن عبد القادر وغيره ، ولكن أنا مذنب ، والصالحون لهم جاه عند الله ، وأطلب من الله بهم (١) .

فجاوبْه بم تقدم ، وهو أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرُّون بما ذكرت لي أيها المبطل ، ومقرُّون أن أوثانهم لا تدبر شيئاً ، وإنما أرادوا ممن قصدوا الجاه والشفاعة ، واقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضحه .

بعد أن انتهى المؤلف من الكلام عن الجواب المجمل ، شرع في الكلام عن الجواب المفصل الذي هو جواب كل شبهة بما يناسبها ، وهذا المقطع هو زبدة الكلام في هذا الكتاب ، وهو أطول مقطع في الكتاب .

الشبهة الأولى :

وخلاصتها : أن الشرك إنما هو في اعتقاد الإيجاد والتأثير لغير الله ، وأما من أقر بتوحيد الربوبية ، و لم يقصد من الصالحين إلا الجاه والشفاعة فليس بمشرك .

وعليه قالوا : إن صرف العبادة لغير الله ، من دعاء وذبح واستغاثة وغيرها ، لا يكون شركاً إلا إذا اعتقد في المصروف إليه النفع والضر .

أما إذا لم يعتقد فيهم النفع والضر ، وإنما جعلهم واسطة بينه وبين القريب المجيب لمكانتهم وصلاحهم عند الله فهذا لا يعد شركاً (٢) .

---

(١) وفي نسخة : بجاههم .

(٢) ومن أمثلة من تبنى هذه الشبهة :

الحداد ، وهو أحد أعداء الدعوة حيث يقول : هؤلاء مهما عظموا الأنبياء والأولياء فإنهم لا يعتقدون فيهم ما يعتقدون في جانب الحق تبارك وتعالى من الخلق الحقيقي التام العام ، وإنما يعتقدون الوجاهة لهم عند الله في أمر جزئي ، وينسبونه لهم مجازاً ، ويعتقدون أن الأصل والفعل لله سبحانه .

ويقول دحلان ، وهو من أشد أعداء الدعوة ، وله افتراءات وأكاذيب ، حتى لُقب بشيخ الكذب ، يقول : فالذي يوقع في الإشراك هو اعتقاد ألوهية غير الله سبحانه ، أو اعتقاد التأثير لغير الله..... ولا يعتقد أحد من المسلمين ألوهية غير الله تعالى ، ولا تأثير أحد سوى الله تعالى .

ويقصد بالألوهية هنا الربوبية ، والقوم يجهلون التوحيد ، والله المستعان .

وخلاصة الجواب عنها : أن الكفار الذين قاتلهم النبي ﷺ كانوا يقرون بأنه الخالق الرازق المحيي المميت ، ويعلمون أن محمداً ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، وإنما كان شركهم بسبب جعلهم الوسائط والشفعاء لله ، كما قال الله تعالى عنهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ . وقال عنهم ﴿ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ .

وهذه الشبهة سبق الجواب عنها في المقدمة ، عند تحرير السبب الذي أباح دماء كفار قريش .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : فحاصل جواب هذه الشبهة : أنك ما زدت على ما أقر به المشركون الأولون ، ولا زاد فعلك عن فعلهم ، بل أنت وهم سواء .

وفي رد الشيخ عبداللطيف بن عبد الرحمن بن حسن على داود بن جرجيس قال : ومن له أدنى همة في العلم ، والتفات إلى ما جاءت به الرسل ، يعرف أن المشركين من كل أمة في كل قرن ما قصدوا من معبوداتهم وآلهتهم التي عبدوها مع الله إلا التسبب والتوسل والتشفع ، ليس إلا ، و لم يدعوا الاستقلال والتصرف لأحد من دون الله ، ولا قاله أحد منهم سوى فرعون ، والذي حاج إبراهيم في ربه . الدرر السنية ج١٢ص١٩٣

فإن قال: إن هؤلاء الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام ، كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام ؟ أم كيف تجعلون الأنبياء أصناماً ؟

فجاوبه بما تقدم ، فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله ، وأنهم ما أرادوا مما قصدوا إلا الشفاعة ، ولكن إذا أراد أن يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكر ، فاذكر له أن الكفار منهم من يدعو الأصنام ، ومنهم من يدعو الأولياء ، الذين قال الله فيهم ﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ الآية .

ويدعون عيسى بن مريم وأمه ، وقد قال الله تعالى ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ الآية .

واذكر له قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قالوا سبحانك ﴾ الآية .

وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ الآية .

فقل له : أعرفت أن الله كفر من قصد الأصنام ، وكفر أيضاً من قصد الصالحين ، وقاتلهم رسول الله ﷺ .

الشبهة الثانية :

وخلاصتها : أن الآيات التي يحتج بها الموحدون في تحرير شرك المشركين ، كقوله تعالى عن المشركين ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ وقوله تعالى عنهم ﴿ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ .

إنما نزلت فيمن يعبد الأصنام ، ونحن لا نعبد الأصنام ، وإنما نتوجه إلى بشر صالحين ، لهم جاه ومكانة عند الله ، يقربونا إلى الله .

وخلاصة الجواب عنها من وجهين :

١. نقول : الفعل واحد ، وهو صرف عبادة لغير الله ، وقصد غير الله ، وسبق أن الإله هو المقصود المعتمد عليه ، سواء كان صنماً ، أو نبياً ، أو صالحاً .

٢. نقول : إن المشركين لم يكونوا كلهم يعبدون الأصنام ، أو ليس كلهم اقتصر على عبادة الأصنام وسؤالهم ، بل منهم من عبد الصالحين ، والأنبياء ، والملائكة . والقرآن لم يفرق بينهم في الحكم ، وأنت فرقت بينهم في الحكم .

وقد أخبرنا الله في كتابه أن من المشركين من عبد الملائكة ، كما في قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قالوا سبحانك ﴾ الآية .

ومنهم من عبد عيسى بن مريم ، كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ الآية .

ومنهم من عبد الصالحين والأولياء ،كما في قوله تعالى ﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ (١).

وهؤلاء صالحون وليسوا أصناماً ، وسبق أنهم لم يكونوا يعتقدون فيهم الربوبية ، وإنما كانت عبادتهم لهم هي جعلهم وسائط وشفعاء ، وهذا الفعل كفعلكم تماماً ، وعندها يخنس الباطل .

تنبيه : هذه الشبهة لها علاقة بالتي قبلها ، فلما كان اعتقادهم أن الإنسان لا يكفر بصرف العبادة لغير الله إلا إذا صرف معاني الربوبية فيه ، رد عليهم المؤلف بأن هذا الذي زعمتم هو عينه فعل المشركين ، واستدل لذلك بقوله تعالى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ .

قالوا : هذا قياس مع الفارق لأن هذه الآيات نزلت في المشركين ونحن مسلمين ، وأيضاً هذه الآيات نزلت فيمن يعبد أصناماً لا تنفع ولا تضر ، فكيف تقيسون الصالحين والأنبياء على الأصنام ؟

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن : وهل وقعت الخصومة ، وجرد السيف ، ودعي من دعي من أهل الكتاب إلى المباهلة ، وأمر بقتالهم حتى يسلموا ، أو يعطوا الجزية إلا لأجل الأنبياء والصالحين ودعائهم ، وهل صورت الأصنام وعبدت إلا باعتبار من هي على صورته وتمثاله من الأنبياء والملائكة والصالحين ...

وقال ابن تيمية :.... كل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان ، وإن كان يظن أنه يعبد الملائكة أو الأنبياء...

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : فمن عبد الله ليلاً ونهاراً ثم دعا نبياً ، أو ولياً عند قبره فقد اتخذ إلهين اثنين .

وقال رحمه الله عن هذه الشبهة : فهذا ترس أعده الجهال الضّلال لرد كلام الله ، إذا قال لهم أحد : قال الله كذا ، قالوا : نزلت في اليهود ، نزلت في النصارى ، نزلت في فلان .... وجواب هذه الشبهة الفاسدة أن يقال : معلوم أن القرآن نزل بأسباب ، فإن كان لا يستدل به إلا في تلك الأسباب بطل استدلاله ، وهذا خروج من الدين ، وما زال العلماء من عصر الصحابة فمن بعدهم يستدلون بالآيات التي نزلت في اليهود وغيرهم على من يعمل بها أ.هـ

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : فإنها نزلت في أناس يعبدون الجن فأسلم الجن وبقي الإنس على عبادتهم . وقيل : نزلت فيمن يعبد عزير والمسيح كما في قول أكثر المفسرين . ولا منافاة بين القولين فإنها نزلت فيمن يدعو مدعواً ، وذلك المدعو صالح في نفسه يرجو رحمة الرب ويخاف عقابه ، فكأن الله سبحانه قال في الرد عليهم : إن من تدعونهم عبيدي كما أنكم عبيدي ، يرجون رحمتي ويخافون عذابي ، فينبغي أن تفعلوا مثلما تفعل تلك الآلهة .

فإن قال: الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار المدبر ، لا أريد إلا منه ، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء ، ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم[(١)] .

فالجواب : أن هذا قول الكفار سواء بسواء ، فاقرأ عليه قوله تعالى ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ .

الشبهة الثالثة :

وخلاصتها : أن المشركين طلبوا مِن مَن توجهوا إليهم ، وأما نحن فلم نطلب منهم ، وإنما جعلناهم واسطة فقط .

وبيان ذلك : أنهم يقولون : كيف تقيسوننا على المشركين ، وفعلنا يختلف عن فعلهم ، فالكفار الذين قاتلهم النبي ﷺ ، كانوا يقصدون ما يدعون مباشرةً ، ويرجون منهم النفع والضر ، فيقولون : يا أصنام ارزقينا ، أعطينا ، اكشفي كربتنا ، وهكذا ...... فهذا طلب من غير الله ، أما نحن فنعلم أن النفع والضر بيد الله ولا نطلب إلا الله ، ولكن لذنوبنا جعلنا هؤلاء الصالحين واسطة بيننا وبين الله في الطلب ، فلا نقول : يا فلان اكشف كربتي ، ولكن نقول : ادعوا الله لنا بكشف الكربة ، أو اشفع لنا عند الله .

فكيف تجعلون من طلب من غير الله كمن طلب من الله لكن بواسطة الصالحين ؟!

وخلاصة الجواب عليها : أن هذا هو عينه فعل المشركين ، فإنهم لم يكونوا يعتقدون في آلهتهم وصالحيهم وما توجهوا إليه قدرتهم على النفع والضر ، وإنما أرادوا منهم ما أردت أنت ، وهو أن يكونوا لهم وسطاء وشفعاء عند الله ، كما قال تعالى عنهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ وقوله ﴿ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ .

وسبب هذه الشبهة أنهم لما ظنوا أولاً أن شرك الأولين هو اعتقاد الربوبية لغير الله ـ أي اعتقاد النفع والضر لغير الله ـ ظنوا ثانياً أنهم إنما كانوا يعبدون غير الله لأجل النفع والضر .

ويقال أيضاً : يوجد اليوم وقبل اليوم من يدعو هؤلاء دعوة مباشرة ، ويعتقد فيهم القدرة على تصريف الأمور .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : ولا ريب أن اتخاذ الشفعاء والتوجه إليهم بالقلب واللسان ينافي إسلام القلب والوجه لله وحده .

---

(١) قال الشيخ عبد العزيز آل عبد اللطيف : كما أن قول المشرك : ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم يناقض دعواه أنه لا يريد إلا من الله تعالى ، فمن قصد غير الله تعالى فهو معرض عن الله تعالى وعبادته ورجائه .

واعلم أن هذه الشبه الثلاث هي أكبر ما عندهم .

فإذا عرفت أن الله وضحها لنا في كتابه ، وفهمتها فهماً جيداً ، فما بعدها أيسر منها .

بعد أن ذكر المؤلف هذه الشبه الثلاث والرد عليها ، وبين ضعفها ، ذكر أن هذه هي أعظم ما عندهم انتشاراً واستدلالاً ، فإذا كان الرد عليها بين لمن تجرد للحق ، فغيرها أولى ، ليبين لك ما سبق ذكره في المقدمة من قوله تعالى ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

ويبين فائدة التحصن بالعلم الشرعي ، الذي يظهر شبه القوم مهما عظمت كبيت العنكبوت .

وهذه الشبه الثلاث قريبة من بعض ، ومترتبة على بعض ، وأصلها واحد ، وهو الخلل في معرفة شرك كفار قريش .

فخلاصة الأولى : أن الشرك محصور في اعتقاد التأثير . فلما بُين لهم حصر شرك كفار قريش في الشفاعة ، قالوا : أولئك طلبوا الشفاعة من أصنام ، ونحن نطلبها من صالحين ، وهذه الشبهة الثانية ، فلما بُين لهم أن من المشركين من طلب الشفاعة من صالحين كالملائكة والأنبياء ، قالوا : أولئك طلبوا منهم مباشرة ، أما نحن فنجعلهم واسطة بيننا وبين الله ، وهي الشبهة الثالثة .

ورحم الله ابن القيم حين قال في نونيته :

والعلم يدخل قلب كل موفق ... من غير بواب ولا استئذان

ويرده المحروم من خذلانه ... لا تشقنا اللهم بالخذلان

فإن قال : أنا لا أعبد إلا الله ، وهذا الالتجاء إليهم ودعائهم ليس بعبادة .

فقل له : أنت تقر أن الله فرض عليك إخلاص العبادة ، وهو حقه عليك .

فإذا قال : نعم .

فقل له : بين لي هذا الذي فرضه الله عليك وهو إخلاص العبادة وهو حقه عليك .

فإنه لا يعرف العبادة ولا أنواعها ، فبينها له بقولك : قال الله تعالى ﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ الآية .

فإذا أعلمته بهذا فقل له : هل هو عبادة لله تعالى ؟

فلا بد أن يقول : نعم ، والدعاء من العبادة.

فقل له : إذا أقررت أنها عبادة ، ودعوت الله ليلاً ونهاراً ، خوفاً وطمعاً ، ثم دعوت في تلك الحاجة نبيـــاً أو غيره، هل أشركت في عبادة الله غيره ؟

فلا بد أن يقول : نعم .

فقل له : قال الله تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ فإذا أطعت الله ونحرت له هل هذه عبادة ؟

فلا بد أن يقول : نعم .

فقل له : إذا نحرت لمخلوق : نبي أو جني أو غيرهما هل أشركت في هذه العبادة غير الله ؟

فلا بد أن يقول : نعم .

وقل له أيضاً : المشركون الذين نزل فيهم القـــــرآن هل كانوا يعبدون الملائكة ، والصالحين ، والـــلات وغير ذلك ؟

فلا بد أن يقول : نعم .

فقل له : وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء ، والذبح ، والالتجاء ، ونحو ذلك ؟

وإلا فهم مقرون أنهم عبيده ، وتحت قهر الله ، وأن الله هو الذي يدبر الأمر ، ولكن دعـــوهم ، والتجـــؤوا إليهم للجاه والشفاعة ، وهذا ظاهر جداً .

....

الشبهة الرابعة :

وخلاصتها : أن الالتجاء إلى الصالحين ودعاءهم والذبح لهم ليس عبادة[١] .

وخلاصة الجواب عليها : التدرج معه بعدة أمور :

١. تقريره أن العبادة محض حق الله ، فلا يجوز صرفها لغيره ، وهذا أمر لا ينكره ، قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) .

٢. نقول له : ما معنى العبادة ، وما ضابطها ؟

ولن يخرج جوابه عن ثلاثة أجوبة :

أ . **أن يعرفها التعريف الصحيح** _ وهذا نادر _ وعندها نطبق أفعاله على هذه القاعدة فيُخصَم .

ب. أن يعرفها تعريفاً خاطئاً ، وعندها نبين له التعريف الصحيح ونلزمه به .

ج. أن يقول : لا أدري . وعندها ننكر عليه إنكاره لشيء لا يعرف معناه وحقيقته .

٣. تقريره أن الدعاء والذبح والحلف.....عبادات ، وإذا ثبت ذلك كان صرفها لغير الله شركاً .

وتقريره بذلك يكون بطريقين :

أ . **نقول له** : قال تعالى ﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ وهذا أمر من الله أن نتعبد له بالدعاء .

إذن الدعاء عبادة ، فصرفه لغير الله شرك .

ونقول له : هل أنت تدعو الله في حاجاتك ؟

فلا بد أن يقول : نعم .

فنقول له : إذن أنت تتعبد الله بهذا الدعاء .

فسيقول : نعم .

فنقول له : إذن الدعاء عبادة .

فسيقول : نعم .

فنقول له : إذن لا يجوز صرفه لغير الله .

وعندها يُخصَم .

وكذلك يقال له في النحر ، قال تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ أمر من الله أن نتعبده ونتقرب له بالنحر .

إذن النحر عبادة ، فصرفه لغير الله شرك .

وكذا يقال له في سائر العبادات .

---

(١) وهذا نتيجة الجهل بمعنى وحقيقة العبادة .

....

ب. **نقول له** : هل كان المشركون يعبدون الملائكة والجن والصالحين ؟

فسيقول : نعم ، لا يستطيع الإنكار ، وإلا ذكرنا له الآيات الدالة على ذلك .

فنبين له أن عبادتهم لهم إنما كانت بدعائهم ، والذبح لهم ، لم يكونوا يعتقدون فيهم الخلق والرزق والتدبير ، كما سبق بيانه.

وهذا ما تفعلونه أنتم .

وبيان ذلك : أن هؤلاء الذين يدعون الإسلام يعلمون أن العبادة حق خالص لله تعالى ، وأن صرف نوع من أنواع العبادة لغير الله شرك ــ وهذا حق ــ لكنهم يخطئون في تطبيق هذه القاعدة ، فمنهم من لا يعرف ضابطاً للعبادة ، ومنهم من يظن أن ضابط العبادة هو الذل والخضوع لمن يعتقد فيه النفع والضر .

فيقولون : نحن لم نشرك بالله ، وأن الالتجاء بالصالحين ودعائهم ليس عبادة [1] .

وهناك شبهة أخرى متعلقة بهذه الشبهة يلبس بها أعداء الدين على الجهال ، لم يذكرها المصنف هنا ، وهي قولهم : هناك فرق بين الدعاء والنداء ، فدعاء أهل القبور شرك ، وأما النداء فجائز .

وقد تبنى هذا التلاعب داود بن جرجيس ، ورد عليه العلماء بردود ، منها :

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ قال العلماء : وما فعلوه ــ وهو الدعاء ــ هو عين ما أمروا به ــ وهو النداء ــ .

وقال تعالى ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ ﴾ وهذا النداء هو المراد بقوله تعالى ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ مع قوله تعالى ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ مع قوله ﷺ : دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه .

ويقال أيضاً : هناك من يدعو الأموات كما سبق .

وانظر الدرر السنية ج ١٢ص٢٣٩ .

---

(١) قال بعضهم في الرد عليهم : إذا كان الحي مع اجتماع حواسه وحركاته لا يسمع من بُعد ، فكيف يجوز في عقل أنه يسمع بعد الممات من قُرب أو بُعد !

فإن قال : أتنكر شفاعة رسول الله ﷺ وتبرأ منها ؟

فقل: لا أنكرها ، ولا أتبرأ منها ، بل هو ﷺ الشافع المشفع ، وأرجو شفاعته ، ولكن الشفاعة كلها لله ، كما قال تعالى ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ .

ولا تكون إلا بعد إذن الله ، كما قال تعالى ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ ولا يشفع في أحـــد إلا بعد أن يأذن الله فيه ، كما قال تعالى ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ وهو لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ .

فإذا كانت الشفاعة كلها لله ، ولا تكون إلا بعد إذنه ، ولا يشفع النبي ﷺ ، ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه ، ولا يأذن إلا لأهل التوحيد ، تبين أن الشفاعة كلها لله ، وأنا أطلبها منه فأقول : اللـــهم لا تحـــرمني شفـــاعته ، اللهم شفعه فيّ ، وأمثال هذا .

الشبهة الخامسة :

وخلاصتها : أن طلب الشفاعة جائز ، وليس شركاً .

وخلاصة الجواب عليها بأمرين :

١. **أن الشفاعة دعاء** ، والدعاء عبادة ، من صرفه لغير الله فقد أشرك .

٢. **أن الشفاعة ملك لله** ، فكيف تطلبها من غير مالكها .

وبيان ذلك : أنهم لما قيل لهم إن الالتجاء للصالحين شرك ، انتقلوا إلى طريق آخر ، فقالوا : إنما نطلب منهم رجاء الشفاعة ، فكيف تنكرون الشفاعة ، وقد أثبتها الله .

فسلكوا في ذلك طريق الإلزام لأهل التوحيد ، فظنوا أنهم إذا أثبتوا حقيقة الشفاعة للنبي ﷺ أنها تطلب منه .

فإن قال : النبي ﷺ أعطي الشفاعة ، وأنا أطلبه مما أعطاه الله .

فالجواب : أن الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا ، وقال تعالى ﴿ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ وطلبك من الله شفاعة نبيه عبادة ، والله نهاك أن تشرك في هذه العبادة أحداً ، فإذا كنت تدعو الله [1] أن يشفعه فيك فأطعه في قوله ﴿ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ .

وأيضاً فإن الشفاعة أُعطيها غير النبي ﷺ ، فصح أن الملائكة يشفعون ، والأفراط يشفعون ، والأولياء يشفعون .

أتقول : إن الله أعطاهم الشفاعة ، فأطلبها منهم ؟!

فإن قلت هذا رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكرها الله في كتابه .

وإن قلت (لا) بطل قولك : أعطاه الله الشفاعة ، وأنا أطلبه مما أعطاه الله .

الشبهة السادسة [2] :

وخلاصتها : جواز طلب الشفاعة من النبي ﷺ ، لأن الله أعطاه الشفاعة .

وخلاصة الجواب عليها بأمرين :

١. أن الله أعطاه الشفاعة ، ونهاك عن طلبها منه ، فكما أطعته في تصديق خبره ، فأطعه في نهيه لك .

٢. أن الله أعطى الشفاعة غير النبي ﷺ ، مثل : الملائكة ، وصالح المؤمنين ، قال ﷺ : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، و لم يبق إلا أرحم الراحمين . رواه مسلم .

ومثل الأفراط ، قال ﷺ : من كان له ثلاثة من الولد ثم ماتوا فإن ذلك يبرئه من النار إلا تحلة القسم . رواه مسلم

فنقول له : هل تطلبها من هؤلاء ؟

فلن يخرج عن جوابين :

١. **أن يقول** : نعم . فنقول له : هذه هي عبادة غير الله .

٢. **أن يقول** : لا . فنقول له : لماذا فرقت بين النبي ﷺ وبين غيره في الطلب ؟!

وعندها يُخصَم .

فعلم أن إعطاء الشفاعة لأحد لا يلزم جواز طلبها منه .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : القائل إنه يطلب الشفاعة بعد موته ، يورد علينا الدليل من كتاب الله ، أو من سنة رسول الله ﷺ ، أو من اجتماع الأمة ، والحق أحق أن يتبع .

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : الظاهر أن مراده ترجو الله .

(٢) هذه الشبهة لها علاقة بالشبهة التي قبلها .

....

خلاصة مذهب أهل السنة و الجماعة في مسألة الشفاعة :

مسألة الشفاعة ومسألة التوسل من أعظم ما تواجه به هذه الدعوة .

والحقيقة أن طلب الشفاعة دعاء ، وعليه فكل دليل أبطل أن يدعى مع الله إلـــهاً آخر يصلح أن يكون دليلاً لإبطال الاستشفاع بالموتى ، وذلك لأن حقيقة الشافع أنه طالب ، وحقيقة المستشفع به أنه مطلوب .

ولأهمية هذا الأمر ، سنعرض مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة الشفاعة ، وهو كالتالي :

١ . الشفاعة ثابتة لا ننكرها ، لأن الله أثبتها في كتابه ، ونصوصها عند أهل السنة من قبيل المتواتر .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : يزعمون أننا ننكر شفاعة الرسول ﷺ ، فنقول : سبحانك هذا بهتان عظيم ، بل نشهد أن رسول الله ﷺ الشافع المشفع ، صاحب المقام المحمود ، نسأل الله رب العرش العظيم أن يشفعه فينا ، وأن يحشرنا تحت لوائه .

٢ . جعل الله الشفاعة لبعض عباده كرامة لهم ، ولإظهار علو مترلتهم وفضلهم .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : **وحقيقة أمر الشفاعة** أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهـــل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود ، فهذا هو حقيقة الشفاعة ، لا كما يظـــن المشركون والجهال أن الشفاعة هي كون الشفيع يشفع ابتداءً فيمن شاء ، وينجيه من النار ، ولهذا يسألونها مـــن الأمـــوات وغيرهم إذا زاروهم أ.هـــ

ولكن هذا العطاء من الله ليس عطاءً مطلقاً ، بحيث يتصرف من جعل الله له الشفاعة فيها كيف يشاء ، بل هو مقيد بأمور :

أ. الإذن من الله ، بأن يأذن الله لهذا الشافع أن يشفع ، وهذا الإذن ليس إذناً مطلقاً ،بل يأذن له فيمن أراد رحمته ورضي عنه.

جاء في الصحيحين : ثم يحد لهم حداً فيدخلهم الجنة .

قال ابن تيمية : فلا يأذن في شفاعة مطلقة لأحد ، بل إنما يأذن في أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعة فيه ، فلا يأذن لهم إذناً مطلقاً .

ب. رضا الله عن الشافع والمشفوع فيه . قال تعالى ﴿ إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ .

ج. أن هذه الشفاعة في الآخرة .

....

٣. الشفاعة ملك لله لا يملكها أحد من البشر ــ حتى الأنبياء ــ ولا الملائكة ، قال تعالى ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ ملكاً واستحقاقاً ، ولذا فإن هذه الشفاعة لا تطلب إلا من الله وحده مالكها(١) .

قال ابن تيمية : فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال ، ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكاً لها ، بل هذا ممتنع كما يمتنع أن يكون خالقاً ورباً .

وقال أيضاً ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ أي : لا يملكها إلا هو ، فهو الذي يسألها سبحانه وتعالى ، وهو الذي تطلب منه سبحانه وتعالى .

وقال أيضاً : ولكن الله إذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكاً لهم .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : الشفاعة ملك لله وحده ، وكون النبي ﷺ أُعطيها لا استقلالاً من دون الله ، بل أكرمه المالك لها لأناس مخصوصين قي مقدار مخصوص ، فهي شيء محدود لشيء محدود أ.هـ

ــ إذا تبين هذا الأمر فإن هذه الشفاعة التي تعلق بها المشركون باطلة لأمور :

- أنهم طلبوها من غير مالكها .
- أنهم طلبوا منهم بعض أمور الدنيا ، وهذا مناف للشفاعة المثبتة التي تكون في الآخرة(٢) .
- أنهم بسؤالهم من غير الله حرموا أنفسهم من الشفاعة المثبتة ، لأنهم بسؤالهم تلك الشفاعة وقعوا في الشرك ، والشفاعة لا تكون إلا بعد رضا الله ، والله لا يرضى عن الشرك وأهله .

قال ابن القيم : وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها ، وهذه حالة كل مشرك .

وقد أحسن الشيخ أحمد بن عيسى حين قال : قد أخبر تعالى أن الشفاعة جميعها له ، فمن طلبها من غير الله ، فقد طلبها ممن لا يملكها ، ولا يسمع ولا يستجيب ، وفي غير الوقت الذي تقع فيه ، ولا قدرة له عليها إلا برضاه إلا ممن هي له ، وإذنه فيها وقبوله ، فطلبها ممن هي له في دار العمل عبادة من جملة العبادات ، وصرف ذلك الطلب لغيره شرك عظيم .

---

(١) قال الشيخ عبد الله أبو بطين : وأخبر النبي ﷺ أن الأنبياء يشفعون ، والصالحين يشفعون ، وعلى هذا فمن أذن الله له في الشفاعة يصح أن يقال : إنه ملك ما أذن له فيه فقط ، لا ما لم يؤذن له فيه ، فهو تمليك معلق على الإذن والرضا ، لا تمليك مطلق .... وسيد الشفعاء صلوات الله وسلامه عليه لا يشفع حتى يقال له : ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع .

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن : وليس قولهم : إنه أعطي الشفاعة بمعنى ملكها وحازها كسائر العطايا والأملاك التي يعطاها البشر ، وأيضاً فإن الله يعطي رسله وأولياءه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، أفيقال : إن الله أعطاهم ذلك وملكهم إياه ، فيطلب منهم ويرغب فيه ، فإن كان ذلك مشروعاً سائغاً فالشفاعة قيدت بقيود لم تقيد بها هذه العطايا والمواهب السنية .

وقد كان المشركون الأولون ــ سواءً من الأميين ، أو من أهل الكتاب ــ يعتقدون أن آلهتهم تشفع لهم جزماً عند الله إذا توجهوا إليها ، وأن الله لا يرد شفاعتهم ، فرد عليهم القرآن ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ ، ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ .

وسبب شبهتهم أن هؤلاء لهم جاه عند الله فمن توجه إليهم أرضوه بالشفاعة ، فظنوا أنها تكون منهم ابتداءً .

(٢) فائدة : ذكر الشيخ حمد بن معمر أن الكفار الأولون يستشفعون بهم في قضاء الحاجات الدنيوية ، وأما المعاد فكانوا مكذبين به ، جاحدين له ، وأما المشركون اليوم فيطلبون من غير الله حوائج الدنيا ، والآخرة .

وقال ابن باز : أما من لم يؤمن بالآخرة منهم ، فهم يعبدونهم ليشفعوا لهم في أمور الدنيا ومصالحها ، من حصول الرزق ، وما أشبهه ، فمقاصدهم بالشفاعة مقاصد عاجلة .

فإن قال : أنا لا أشرك بالله شيئاً ــ حاشا وكلا ــ ولكن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك .

فقل له : إذا كنت تقر أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا ، وتقر أن الله لا يغفره ، فما هذا الأمر الذي عظمه الله ، وذكر أنه لا يغفره ؟! فإنه لا يدري .

فقل له : كيف تبرئ نفسك من الشرك ، وأنت لا تعرفه ؟!

كيف يحرم الله عليك هذا ، ويذكر أنه لا يغفره ولا تسأل عنه ولا تعرفه ؟!

أتظن أن الله عز وجل يحرمه ولا يبينه لنا ؟!

فإن قال : الشرك عبادة الأصنام ، ونحن لا نعبد الأصنام .

فقل له : ما معنى عبادة الأصنام ؟

أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأحجار والأخشاب تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها ؟ فهذا يكذبه القرآن.

فإن قال: إنهم يقصدون خشبة ، أو حجراً ، أو بنية على قبر وغيره يدعون ذلك ، ويذبحون له ، يقولون : إنه يقربنا إلى الله زلفى ، ويدفع عنا الله ببركته ، ويعطينا ببركته .

فقل : صدقت ، وهذا هو فعلكم عند الأحجار ، والبناء الذي على القبور وغيرها .

فهذا أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام ، وهو المطلوب .

ويقال له أيضاً : قولك (الشرك عبادة الأصنام) هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا ، وأن الاعتماد على الصالحين ودعاءهم لا يدخل في ذلك ؟

فهذا يرده ما ذكر الله تعالى في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة ، أو عيسى ، أو الصالحين .

فلا بد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحداً من الصالحين فهو الشرك المذكور في القرآن ، وهذا هو المطلوب .

وسر المسألة أنه إذا قال : أنا لا أشرك بالله .

فقل له : وما الشرك بالله ؟ فسره لي .

فإن قال : هو عبادة الأصنام .

فقل له : وما عبادة الأصنام ؟ فسرها لي .

وإن قال : أنا لا أعبد إلا الله .

فقل له : ما معنى عبادة الله ؟ فسرها لي .

فإن فسرها بما بينته فهو المطلوب .

وإن لم يعرفه فكيف يدعي شيئاً وهو لا يعرفه ؟

و إن فسره بغير معناه ، بينت له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله ، وعبادة الأوثان أنه الذي يفعلون في هذا الزمان بعينه ، وأن عبادة الله وحده لا شريك له هي التي ينكرون علينا ويصيحون منه ، كما صاح إخوانهم حيث قالوا ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ .

الشبهة السابعة :

وخلاصتها : أن الشرك هو عبادة الأصنام ، وأن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك .

وهذه الشبهة ، والجواب عليها ، مثل الشبهة الرابعة والجواب عليها ، إلا أن تلك في العبادة ، وهذه في الشـــرك ، والمؤدى واحد ، ولو جاء بها المؤلف بعدها لكان أنسب .

وخلاصة الجواب عليها : التدرج معه في أمور :

١. تقريره أن الشرك محرم مانع من دخول الجنة وهذا أمر لا ينكره .

٢. نقول له : ما معنى الشرك وما هو ضابطه ؟

ولن يخرج جوابه عن ثلاثة أمور :

أ . **أن يعرفه التعريف الصحيح** – وهذا نادر– وعندها نترل فعله على هذا التعريف، فيُخصَم ،لأنه لم يحقق عبادة الله وحده .

ب. أن يعرفه تعريفاً خاطئاً ، وعندها نصحح له هذا التعريف بالأدلة ، ونلزمه به ، فيُخصَم .

ج . أن يقول : لا أدري ، وعندها ننكر عليه تبرئة نفسه من شيء لا يعرف معناه وحقيقته .

وبيان ذلك : أن نبين لمن ادعى التوحيد وهو واقع في الشرك معنى الشرك في الحقيقة ، ومعنى العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله ، فإنهم لا يعرفون معنى الشرك ، ولا ضابطه ، ولا معنى العبادة ، ولا ضابطها .

ومنهم من يظن أن ضابط الشرك هو عبادة الأصنام خاصة ، ثم هؤلاء منهم من لا يعرف ضابط عبادة الأصنام ، ومنهم من يظن أن ضابط عبادتها هو اعتقاد أنها أرباب تخلق وترزق وتنفع وتضر .

وهذا الانحراف في معنى الشرك مثل انحرافهم في الشبهة الرابعة في معنى العبادة .

فإن قال : الشرك هو عبادة الأصنام فنجيبه بجوابين :

أ. نقول له : إن كنت تظن أن عبادة الأصنام هو باعتقاد أنها تخلق وترزق وتنفع وتضر فهذا باطل ، لأن الله أخبر عن المشركين الذين يعبدون الأصنام أنهم يعتقدون ذلك لله وحده ، وإن كنت تظن أن عبادتهم لها هو بصرف الدعاء والطواف والذبح وغير ذلك لها ، فهذا هو فعلكم عند قبور الأولياء .

ب. نقول له : قولك (الشرك عبادة الأصنام) تقصد أنه مخصوص بهذا ، وأن عبادة غير الأصنام ليست شركاً ، فهذا باطل ، لأن الله تعالى أخبر عن المشركين أن منهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأنبياء ، ومنهم من يعبد الصالحين .

فيعلم بذلك أن الشرك لا يختص بعبادة الأصنام بل هو عبادة غير الله أياً كان الذي يعبده ، حتى لو لم يعتقد فيه الربوبية ، قال تعالى ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ فقوله ﴿ أَحَداً ﴾ نكرة تفيد العموم .

فإن قال : إنهم لم يكفروا بدعاء الملائكة ، والأنبياء ، وإنما كفروا لما قالوا : الملائكة بنات الله .
ونحن لم نقل : إن عبد القادر ولا غيره ابن الله .
فالجواب : أن نسبة الولد إلى الله تعالى كفر مستقل ، قال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .
والأحد : الذي لا نظير له .
والصمد : المقصود في الحوائج .
فمن جحد هذا فقد كفر ، ولو لم يجحد آخر السورة .
ثم قال تعالى ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد أول السورة .
وقال الله تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ الآية . ففرق بين النوعين ، وجعل كلا منهما كفرا مستقلاً .
وقال الله تعالى ﴿ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنّ ﴾ الآية . ففرق بين الكفرين .
والدليل على هذا أيضاً أن الذين كفروا بدعاء اللات – مع كونه رجلاً صالحاً – لم يجعلوه ابن الله ، والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك .
وكذلك العلماء أيضاً ، وجميع المذاهب الأربعة يذكرون في باب (حكم المرتد) أن المسلم إذا زعم أن لله ولداً فهو مرتد ، وإن أشرك بالله فهو مرتد ، فيفرقون بين النوعين ، وهذا في غاية الوضوح .

الشبهة الثامنة :

وخلاصتها : أن الكفار لم يكن سبب كفرهم دعاء الملائكة ، ولكن لأنهم قالوا : الملائكة بنات الله .
كما قال القباني : العلة التي وجبت كفر المشركين هي اعتقادهم في الأنبياء والأولياء والملائكة أنهم أبناء الله ، وبنات الله ، تعالى الله عن ذلك أ.هـ

وخلاصة الجواب على هذه الشبهة ، بذكر أربعة أمور ، وهي :
١. **أن نسبة الولد إلى الله كفر مستقل** ، والالتجاء إلى الصالحين ودعاؤهم كفر مستقل .
٢. **أن الله فرق بين الكفرين** : نسبة الولد إلى الله ، واتخاذ شركاء مع الله ، قال تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ . وقال تعالى ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ فكل واحد كفر مستقل .
٣. **أن الذين كفروا بدعاء اللات لم يجعلوه ابناً لله** ، والذين كفروا بدعاء الجن لم يجعلوهم أبناء لله ، وإنما كفروا بصرف الدعاء ونحوه لهم .
٤. **أجمع العلماء في جميع المذاهب أن الكفر لا يقتصر على نوع واحد** ، ولذا ذكروا في كتبهم عدة أمور يكفر بها الإنسان ، وأجمعوا أن من زعم أن لله ولداً فهو مرتد ، وأن من أشرك بالله فهو مرتد ، ففرقوا بين النوعين ، وجعلوا كلاً منهما كفراً .

....

وبيان ذلك : أن المشركين يحاولون في هذه الشبهة وغيرها صرف الشرك عن أنفسهم بأي وسيلة ، ويقولون : إن الله لم يكفر الكفار لأنهم دعوا الملائكة و الصالحين ، وإنما كفرهم لأنهم قالوا : الملائكة بنات الله .

والرد عليهم واضح من كلام الشيخ وهو أن الكفر لا ينحصر في لفظ معين أو فعل معين ، بل كل قول أو فعل خالف أصل التوحيد فهو كفر ، وإن تعددت صور المخالفة ازداد ضلال المخالف و عذابه ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ ، وقال تعالى ﴿ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً ﴾ ولو أن الإنسان حصل منه ناقض من نوا قض التوحيد يكفر بذلك الناقض ، فإن فعل ناقضاً غيره ازداد كفره وعذابه .

فالسجود لغير الله كفر مستقل ، ودعاء غير الله كفر مستقل ، ونسبة التأثير لغير الله تعالى كفر مستقل ، وهكذا .

وإن قال : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .
فقل : هذا هو الحق ، ولكن لا يُعبدون .
ونحن لا ننكر إلا عبادهم مع الله ، وإشراكهم معه ، وإلا فالواجب عليك حبهم وإتباعهم ، والإقرار بكرامتهم .
ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع و الضلالات ، ودين الله وسط بين طرفين ، وهدى بين ضلالتين ، وحق بين باطلين .

الشبهة التاسعة :

وخلاصتها :جواز دعاء الأولياء والصالحين ، لأن الله بين مترلتهم ومكانتهم .
وخلاصة الجواب عليها : أن الدعاء عبادة ، متى صرفت لغير الله كان ذلك شركاً أكبر ، مهما كان المصروف له ، قال تعالى ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ فقوله ﴿ أَحَداً ﴾ نكرة تفيد العموم .
وبيان ذلك : أهم يستدلون بالآيات التي فيها رفع شأن الأولياء وعلو مترلتهم ، وما أوتوا من كرامات ، ويجعلون ذلك دليلاً على جواز دعائهم والاستغاثة بهم .
والجواب أن نقول : ما استدللتم به حق وصواب ، لكن استدلالكم به في غاية الفساد ، ونحن نحب الأولياء ونعتبر حبهم قربة إلى الله ، ونؤمن بكراماهم ، خلافاً لأهل البدع كالمعتزلة وغيرهم الذين ينكرون كرامات الأولياء ، ويقولون : لا تخرق العادة إلا لنبي ، لكن هذا شيء ، وما تفعلون من عبادهم شيء آخر .
قال السعدي : والناس في معاملة الصالحين ثلاثة أقسام :
١. أهل الجفاء الذين يهضموهم حقوقهم ، ولا يقومون بحقهم من الحب والموالاة لهم والتوقير والتبجيل .
٢. أهل الغلو الذين يرفعوهم فوق مترلتهم التي أنزلهم الله بها .
٣. أهل الحق الذين يحبوهم ويوالوهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية ، ولكنهم يبرؤون من الغلو فيهم وادعاء عصمتهم .

فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد) هو الشرك الذي أُنزل فيه القرآن ، وقاتل رسول الله ﷺ الناسَ عليه . فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل وقتنا بأمرين :

أحدهما : أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة أو الأولياء أو الأوثان مع الله إلا في الرخاء ، وأما في الشدة فيخلصون الدين لله ، كما قال تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ، بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ الآية .

فمن فهم هذه المسالة التي وضحها الله في كتـــابه ، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله ، ويدعون غيره في الرخاء ، وأما في الشدة فلا يدعون إلا الله وحده ، وينسون ساداهم .

تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين .

ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً راسخاً ، والله المستعان .

والأمر الثاني : أن الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله : إما نبياً ، وإما ولياً ، وإما ملائكة ، أو يدعون أحجاراً ، وأشجاراً مطيعة إلى الله تعالى ليست بعاصية .

وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس ، والذين يدعوهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك .

والذي يعتقد في الصالح والذي لا يعصي– مثل الخشب والحجر – أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويُشهدُ به .

....

خلاصة هذا المقطع : بيان أن شرك المتأخرين أعظم من شرك الأولين .

بعد أن بين المؤلف بالأدلة الواضحة ضلال هؤلاء المشركين الذين يدعون التوحيد ، وبين أن فعلهم هو عينه فعل كفار قريش الذين قاتلهم النبي ﷺ استطرد ، وأراد أن يزيد على ذلك ، ويبين أن هؤلاء المشركين المتأخرين أعظم شركاً من الذين قاتلهم النبي ﷺ وذكر لذلك دليلين خلاصتهما :

١. أن المشركين الأولين يلجئون إلى غير الله في الرخاء دون الشدة ،وأما المتأخرون فيلجئون إلى غير الله في الرخاء والشدة .

والسبب في كون المشركين الأولين يلجئون إلى الصالحين في الرخاء دون الشدة هو اعتقادهم أن الصالحين ليست لهم القدرة على الإنقاذ بل هم مجرد واسطة ، وأن وقت الشدة وقت حرج وضيق لا يمكن فيه الالتجاء إلى الوسائط ، فيلجئون مباشرة إلى الله ؛ لأنه هو القادر على إنقاذهم ، وأما المشركون المتأخرون فيلجئون إلى الصالحين في الرخاء والشدة ، وذلك لاعتقادهم أن الصالحين لهم القدرة على الإنقاذ ، وليسوا مجرد واسطة ، وهذا أمر ثالث — لم يذكره المصنف – في سبقهم الأولين في الشرك[1] . قال النبي ﷺ لحصين : كم إلهاً تعبد ؟ قال : سبعة . ستة في الأرض ، وواحد في السماء . قال : فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك ؟ قال : الذي في السماء .

٢. أن المشركين الأولين يلجئون إلى المقربين عند الله أصحاب الأعمال الصالحة ، أو الأشجار والأحجار التي هي طائعة لله ، وأما المشركون المتأخرون فيلجئون إلى المقربين ، وإلى أصحاب الفسق والفجور أيضاً[2] .

والسبب في أن المشركين الأولين يلجئون إلى المقربين خاصة ، هو اعتقادهم أن القرب من الله تعالى منزلة عظيمة يستحق بها صاحبها أن يملكه الله تعالى الشفاعة ، فله أن يشفع لمن شاء ، فلهذا يلجئون إليه ، ويطلبون الشفاعة منه ، وأما المتأخرون فيلجئون إلى هؤلاء ، وإلى أصحاب الفسق والفجور أيضاً ، لاعتقادهم أن المقربين عند الله على مراتب ، فمنهم من يسقط عنه التكليف فلا يجب عليه شيء ولا يحرم عليه شيء . فهو عندهم في الظاهر فاسق وفاجر ، ولكنه في الحقيقة ولي مقرب ، وأما ما يظهره من الفجور فلأنه سقط عنهم التكليف .

وسبق الكلام عن هذه المسألة ، وتوضيح كلام الشيخ في شرح القواعد الأربع .

---

(١) ومن أمثلة ذلك ما ذكره صاحب كتاب (مناقب الجيلاني) راوياً عن الرفاعي أنه قال : توفي أحد خدام الغوث الأعظم ، وجاءت زوجته إلى الغوث فتضرعت والتجأت إليه وطلبت حياة زوجها ، فتوجه الغوث إلى المراقبة ثم أتى بروح ذلك الزوج بسطوته على ملك الموت .

وقول بعضهم منادياً وليه : يا خالق الولد الذي تخلقه مطهور .

وقول بعضهم : والله أما الولي فإنه يحيي الموتى ، وأما الولي فلان فإنه حي لا يموت .

ومن ذلك ما ذكر الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن قال : وقد حدثني الشيخ خليل الرشيدي بجامع الأزهر أن بعض أعيان المدرسين هناك قال : لا يدق وتد في القاهرة إلا بإذن السيد أحمد البدوي .

قال : فقلت له : هذا لا يكون إلا لله ، فقال : حي في سيدي أحمد البدوي اقتضى هذا .

ومن ذلك ما يفعله أهل نجد عند قبة أبي طالب ــ وهو حاكم غاصب متعد ــ من الاستغاثة به عند حلول المصائب .

وذكر بعضهم أن حياً من أهل البوادي إذا أرسلوا أنعامهم للمرعى قالوا : في حفظك يا فلان . يعنون ساكن مشهدهم .

(٢) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : بل منهم من يدعو أناساً من أكفر الناس ، بل بعضهم أكفر من اليهود والنصارى ، كالذين يدعون إمام أهل وحدة الوجود ابن عربي ، فإن عليه الآن قبة في الشام أ.هـ ومعلوم أن الفتنة بالصالحين أظهر من الفتة بغيرهم .

إذا تحققت أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ أصح عقولاً وأخف شركاً من هؤلاء ، فاعلم أن لهؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا ، وهي من أعظم شبههم فأصغي سمعك لجوابها :
وهي أنهم يقولون : إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون ألا إله إلا الله ، ويكذبون رسول الله ﷺ وينكرون البعث ، ويكذبون القرآن ، ويجعلونه سحراً .
ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ونصدق القرآن ، ونؤمن بالبعث ، ونصلي ، ونصوم ، فكيف تجعلوننا مثل أولئك ؟!

الشبهة العاشرة :

وخلاصتها : أن من قال لا إله إلا الله ، وصلى وصام ، لا يعتبر كافراً .
قال بعضهم : قبلتنا من أمها لا يكفر .
وهذه الشبهة من أعظم ما أثير ضد هذه الدعوة المباركة ، حيث نسب إليها تكفير المسلمين ، القائلين (لا إله إلا الله) . ولذا أطال الشيخ هنا في الجواب عليها ، وذكر عشرة أجوبة تبطل هذه الشبهة .
قال الشيخ محمد بن مانع : وذلك أن شبهتهم من أقوى الشبه تلبيساً ، وأشد تدليساً ، فإن من شهد أن لا إله إلا الله ، وصلى ، وصام ، عظم إطلاق الكفر عليه عند الجاهل ، و لم يعلم أنه هدم هذه الأعمال بشركه ودعوته غير الله ، فلم تنفعه عبادته ، لأن من لم يأت بالتوحيد الخالص ، لم يعبد الله ، فلهذا صار هذا الجواب من أنفع الأجوبة أ.هـ

فالجواب : أنه لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدق رسول الله ﷺ في شيء ، وكذبه في شيء أنه كافر لم يدخل في الإسلام .

وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه ، كمن أقر بالتوحيد ، وجحد وجوب الصلاة ، أو أقر بالتوحيد والصلاة ، وجحد وجوب الزكاة ، أو أقر بهذا كله ، وجحد وجوب الصوم ، أو أقر بهذا كله ، وجحد وجوب الحج .

ولما لم ينقد أناس في زمن النبي ﷺ للحج أنزل الله تعالى في حقهم ﴿ وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

ومن أقر بهذا كله ، وجحد البعث كفر بالإجماع ، وحل دمه وماله ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ الآية .

فإذا كان الله تعالى قد صرح في كتابه أن من آمن ببعض ، وكفر ببعض فهو كافر حقاً زالت هذه الشبهة .

وهذه هي التي ذكرها بعض أهل الأحساء في كتابه الذي أرسل إلينا.

ويقال : إذا كنت تقر أن من صدق الرسول ﷺ في شيء ، وجحد وجوب الصلاة ، فهو كافر حلال الدم والمال بالإجماع ، وكذلك إذا أقر بكل شيء إلا البعث ، وكذلك لو جحد وجوب صوم رمضان ، وكذب بذلك لا يُجحد هذا ، ولا تختلف المذاهب فيه ، وقد نطق به القرآن كما قدمنا .

فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج فكيف إذا جحد الإنسان شيئاً من هذه الأمور كفر _ ولو عمل بكل ما جاء به الرسول ﷺ _ وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر (٢) ؟! سبحان الله ما أعجب هذا الجهل .

الجواب الأول :

وخلاصته : أن العلماء أجمعوا على أن من آمن ببعض ما جاء به النبي ﷺ وأنكر البعض الآخر أنه كافر ، وإن قال (لا إله إلا الله) . نقل الإجماع على ذلك : ابن عبد البر ، وابن المنذر ، وابن حزم ، وابن تيمية .

وقد ذكر الشيخ هنا عدة أمثلة ، والقاعدة في ذلك : كل من أنكر شيئاً مما جاء به النبي ﷺ فقد كفر ، وإن قال (لا إله إلا الله) . وهم يقرون أن من قال (لا إله إلا الله) وأنكر وجوب الصلاة ، أو الصوم ، أو أنكر آية واحدة من القرآن ، أو أنكر البعث أنه كافر ، فكيف بمن أنكر التوحيد .

---

(١) حكا ابن جرير الطبري في تفسيره عن عكرمة مولى ابن عباس : أن اليهود والنصارى لما أنزل الله عز وجل قوله ﴿ وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ قالوا : لا نحج ، فأنزل الله عز وجل ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا الأثر فيه مقال .

(٢) والحق أن هذا إلزام في محل النزاع .

ويقال أيضاً لهؤلاء : أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة ، وقد أسلموا مع النبي ﷺ وهم يشهدون ألا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويصلون ، ويؤذنون .

فإن قال : إنهم يشهدون أن مسيلمة نبي .

قلنا : هذا هو المطلوب ، إذا كان من رفع رجلاً في رتبة النبي ﷺ كفر ، وحل ماله ودمه ، ولم تنفعه الشهادتان ، ولا الصلاة ، فكيف بمن رفع شمسان أو يوسف[1] ، أو صحابياً أو نبياً في مرتبة جبار السماوات والأرض ؟!

سبحانه ما أعظم شأنه . ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

الجواب الثاني :

وخلاصته : أن بني حنيفة _ وهم أتباع مسيلمة الكذاب ، وهم أشهر أهل الردة _ فإنهم يشهدون ألا إله إلا الله ، ويؤذنون ، ويصلون ، ومع ذلك كفرهم الصحابة وقاتلوهم ، فهذا يدل على أنه لا يكفي إلا الإيمان بجميع ما شرعه الله .

فإن قالوا : هؤلاء كفروا لأنهم جعلوا مسيلمة نبياً .

فنقول لهم : وهذا يدل أنهم كفروا بذلك مع أنهم قالوا (لا إله إلا الله) وصلوا ، فدل أنهم كفار مع إتيانهم بذلك ، و لم ينفعهم ذلك ، فبطل قولكم .

ثم نقول لهم : إذا كان هؤلاء كفروا لأنهم جعلوا مسيلمة نبياً ، ورفعوه إلى منزلة النبوة ، فكيف بمن رفع شخصاً أياً كان إلى مرتبة الألوهية ، أو الربوبية ؟!

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : يوسف وشمسان وتاج أسماء أناس كفرة طواغيت ، فأما **تاج** فهو من أهل الخرج تصرف إليه النذور ويدعى ويعتقد فيه النفع والضر ، وكان يأتي إلى أهل الدرعية من بلد الخرج لتحصيل ما له من النذور ، وقد كان يخافه كثير من الناس الذين يعتقدون فيه ، وله أعوان وحاشية لا يتعرض لهم بمكروه ، بل يدعي فيهم الدعاوى الكاذبة وتنسب إليهم الحكايات القبيحة ، ومما ينسب إلى تاج أنه أعمى ويأتي من بلده الخرج من غير قائد يقوده .

وأما **شمسان** فالذي يظهر من رسائل إمام الدعوة رحمه الله أنه لا يبعد عن العارض ، وله أولاد يعتقد فيهم .

وأما **يوسف** فقد كان على قبره وثن يعتقد فيه ، ويظهر أن قبره في الكويت أو الأحساء كما يفهم من بعض رسائل الشيخ .

وأما تاريخ وجودهم فهو قريب من عصر إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وقد ذكرهم في كثير من رسائله ، لأنهم من أشهر الطواغيت التي يعتقد فيها أهل نجد وما يقاربها ، وكانوا يعتقدون فيهم الولاية ويصرفون لهم شيئاً من العبادة ، وينذرون لهم النذور ، ويرجون بذلك نظير ما يرجوه عباد اللات والعزى أ.هـ

ويقال أيضاً : الذين حرقهم علي بن أبي طالب ﷺ بالنار كلهم يدّعون الإسلام ، وهم من أصحاب علي ﷺ وتعلموا العلم من الصحابة ، ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان وأمثالهما .

فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم ؟!

أتظنون الصحابة يكفرون المسلمين ؟!

أم تظنون الاعتقاد في تاج وأمثاله لا يضر ، والاعتقاد في علي بن أبي طالب يكفِّر ؟!

الجواب الثالث :

وخلاصته : أن الذين اعتقدوا في علي بن أبي طالب الألوهية ، مع أنهم من أصحاب علي ، وتعلموا العلم من الصحابة ، ويقولون (لا إله إلا الله) ومع ذلك حرقهم علي بالنار ، وأجمع الصحابة على كفرهم ، فلم ينفعهم قول (لا إله إلا الله) والحالة هذه[1] .

---

(١) جاء في البخاري أن علياً ﷺ أُتي بزنادقة فأحرقهم ، فبلغ ذلك ابن عباس فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ : لا تعذبوا بعذاب الله ، ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ : من بدل دينه فاقتلوه .

ويقال أيضاً : بنو عُبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمن بني العباس ، كلهم يشهدون ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويدّعون الإسلام ويصلون الجمعة والجماعة .

فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه ، أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم ، وأن بلادهم بلاد حرب ، وغزاهم المسلمين حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين .

الجواب الرابع :

وخلاصته : أن العبيدين[1] ، والذين يسمون أنفسهم كذباً بالفاطميين ، كانوا يشهدون ألا إله إلا الله ، ويدّعون الإسلام ، ويصلون الجمعة ، والجماعة ، ومع ذلك أجمع علماء زمانهم ــ زمن بني العباس ــ ومن بعدهم على كفرهم وقتالهم .

نقل الإجماع على ذلك : ابن تيمية ، وابن القيم ، وابن كثير .

---

(١) فائدة : العبيديون نسبة إلى عبيد الله المهدي مؤسس دولتهم في المغرب ومصر ، ونسبهم المؤلف إلى القداح أحد مؤسسي الباطنية ، واسمه ميمون بن ديصان ، ويعرف بالقداح. والعبيديون من الباطنية الذين ظاهر مذهبهم التشيع والرفض ، وباطنه الكفر المحض .

وهؤلاء الذين يقولون : إن للدين ظاهر وباطن ، والناس يعلمون الظاهر والإمام يعلم الباطن ، وعليه حرفوا القرآن وجعلوا هذا التحريف هو علم الباطن .

قال عنهم الغزالي وشيخ الإسلام : ظاهرهم الرفض ، وباطنهم الكفر المحض .

ويسمون أنفسهم (الفاطميون) نسبة إلى فاطمة وعليّ رضي الله عنهما ، وهي نسبة كاذبة ، كما قال شيخ الإسلام : وجمهور الأمة تطعن في نسبهم ، ويذكرون أنهم من أولاد المجوس أو اليهود .

وقال : وليس كل من أظهر الإسلام يكون مؤمناً في الباطن إذ قد عرف في المظهرين للإسلام المؤمن والمنافق ، قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والقداح نشأ على عقيدة الإسماعيلية ، ثم هرب إلى اليمن وأنشأ دعوة إسماعيلية باقية إلى الآن ، ثم طرد إلى المغرب فأنشأ فيها دعوة قوية ، ثم كثر أتباعه ، وبدأ بالحروب من المغرب حتى وصلوا إلى مصر ، واحتلوا كل هذه البلاد ، وغلبوا عليها وأقاموا فيها الدولة المسماة بالعبيدية .

والقرامطة نوع منهم من الإسماعيليين ، وكان بينهم وبين بني عبيد القداح صلات قوية ، وهؤلاء خدم لهؤلاء ، لكن حصل بينهم خلاف في آخر الأمر أدى إلى استقلال هؤلاء وهؤلاء ، والقرامطة هم الذين غزوا البيت الحرام وقتلوا الناس فيه مثل ما قال كبيرهم :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

وهذا لأجل اعتقادهم في نوع من الحلول ، واعتقاداتهم الباطنية كفرهم العلماء بها .

لما ولوا مصر وكانت شوكتهم فيها ، لم يتقدموا إلى الشام ولا إلى العراق ودام حكمهم نحو مائتين من السنين ابتلوا العلماء في عقائد باطنة ، حتى ذكر الحافظ الذهبي في العبر وفي غيره ، أنهم يأتون بالعالم السني فيذكرون له شي من عقائدهم الباطنية فإن لم يقر سلخ جلده أمام الناس ، أحميت النار والحديد وسلخ جلده أمام الناس ، أحمي النار والحديد وسلخ جلده كما تسلخ الذبيحة وعظم هذا في الناس جداً وأسسوا للدعوة إلى دين الباطنية الأزهر المعروف الآن ، ومضى عليه قرون وهو على طريقة الإسماعيلية ،ثم بعد ذلك لما انتهت الدولة العبيدية رجع إلى يد جملة أهل السنة في مقابلة طوائف الباطنية .

كانت عقائدهم في الباطن عقائد إلحادية من جنس عقائد الذين حرقهم علي ﷺ وخد لهم الأخاديد ، ومنهم ظهرت النصيرية ومنهم ظهر الدروز الذين يؤلهون الحاكم بأمر الله العبيدي ، ويعتقدون ــ ولم يظهروا ذلك ــ أن الإله يحل في الأشخاص وأنه تنقل في سبعة حتى كان آخر هؤلاء السبعة هو الحاكم بأمر الله العبيدي ، لأنهم يعتقدون في هذا الرقم سبعة ، وأول ما يدعون من يدعون إلى الحكم من الرقم سبعة ، ويذكرون لهم الرقم سبعة وما فيه ، ويقولون مثلاً : هل تعتقد أن الله جل وعلا الحكيم يخلق سبع سماوات وسبع أرضين ويجعل أيام الأسبوع سبعة ويجعل الطواف سبعة ويجعل السعي سبعة ويجعل كذا سبعة وسبعة و سبعة ويترك الأئمة بلا عدد سبعة ، فلابد أن الإمامة تقف عند العدد سبعة لأن الإمامة أعظم من هذه الأشياء ، فإذا أقر لهم بهذه المقدمة قالوا : الأئمة السبعة آخرهم إسماعيل ،لأن الرافضة بعد جعفر الصادق افترقوا فرقتين :فرقة تسمى الجعفرية، وفرقة تسمى الإسماعيلية .

وكانت القاعدة في بنيهم في الإمامة : أن الإمام هو الولد الأكبر بعد الإمام الذي قبله ، وكانت الإمامة منعقدة عند الرافضة والشيعة له ، وكان ولده الأكبر إسماعيل ، وولده موسى فغاب إسماعيل في حياة والده جعفر الصادق في نحو سنة (٤٨) ذهبت به أمه وغابت به ، لأن الذين كانوا يحبون أن تكون الولاية في موسى كادوا لأمه في قصة تاريخية ، المهم أنها هربت وغاب إسماعيل عن الناس ، فلما غاب مات جعفر الصادق رحمه الله تعالى ، وهو من العلماء الأخيار الفقهاء ، لما مات رحمه الله اختلفوا من الإمام بعده ؟

فقالت طائفة القاعدة : إن الإمام هو الولد الأكبر فإسماعيل هو الإمام ، وقال آخرون : لا ندري أمر إسماعيل ، فهل نبقي الناس بلا إمام ؟ فمن قال : ببقاء الإمام في الولد الأكبر وأن إسماعيل هو الإمام وأنه هو المستحق فنقف بالإمامة حتى يرجع ، سمي هؤلاء إسماعيلية ، ومن قال بإمامة موسى إذ إن الابن الأكبر لجعفر مات أو انقطعت أخباره ، سمو موسوية ، ولهذا تجد أن الرافضة الاثني عشرية الموسوية الجعفرية ، فنسبتهم إلى جعفر يخرجون عن أهل السنة وبنسبتهم إلى موسى يخرجون من الإسماعيلية ، وبنسبتهم إلى الاثني عشرية يخرجون كثيراً من طوائف الشيعة التي كانت في الزمن الأول لا تقول ببقاء الإمامة اثني عشر فقط ، بل إنها تتساقط وآخر أئمتهم العسكري حصل له مثل ما حصل لإسماعيل في الاختفاء . حصل للطائفتين اعتقادات مختلفة في أن هذا الغائب هو المهدي المنتظر ، فالإسماعيلية اعتقدوا في إسماعيل وأنه هو الإمام المنتظر ، فدعوا في مواجهة الموسوية إلى نحلتهم سراً ، فأصبح لهم عقائد باطنية مختلفة ، وأصبح لهم تفسيرات غير ظاهرة ، فهم من جهة تفسير النصوص أكثر غلواً من الرافضة ، لأنهم يجعلون لكل نص ظاهراً وباطناً ، فالظاهر للعامة ــ يعني للسنة ــ والباطن لأهل الحكمة وهم الباطنية . (أفاده الشيخ صالح آل الشيخ) .

....

تنبيه : قال الشيخ عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف حفظه الله : ما ذكره المؤلف عنهم أنهم يشهدون الشهادتين ، ويصلون الصلوات ، فلعله باعتبار أنهم يتظاهرون بذلك ، لكن حقيقتهم أنهم أعظم كفراً من اليهود والنصارى ، فأي كفر أعظم من نقض التوحيد ، والقول بقدم العالم ، والطعن في النبوات ، وإبطال الشرائع ، واستحلال المحرمات .

وفي كلام المؤلف عنهم في كتابه مختصر سيرة الرسول ﷺ ما دل على ذلك ، وهو أكثر دقة وتفصيلاً ، حيث قال عنهم : وأظهروا شرائع الإسلام ، وإقامة الجمعة ، والجماعة ، ونصبوا القضاة ، والمفتين ، لكن أظهروا الشرك ، ومخالفة الشريعة ، وظهر منهم ما يدل على نفاقهم ، وشدة كفرهم ، فأجمع أهل العلم أنهم كفار ، وأن دارهم دار حرب ... أ.هـ

قال ابن تيمية : وبالجملة فعلم الباطن الذي يدّعون ، مضمونه الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، بل هو جامع لكل كفر .

وقال عبد القاهر البغدادي : والذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة ، يقولون بقدم العالم ، وينكرون الرسل ، والشرائع كلها لميلها إلى استباحة كل ما يمل إليه الطبع .

وقال أبو حامد الغزالي عنهم : والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ، واستباحة المحظورات ، واستحلالها ، وإنكار الشرائع .

ويقال أيضاً : إذا كان الأولون لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول ، والقرآن ، وإنكار البعث ، وغير ذلك ، فما معنى الباب الذي ذكره العلماء في كل مذهب (باب حكم المرتد) وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه .

ثم ذكروا أشياء كثيرة كل نوع منها يكفر ويحل دم الرجل وماله ، حتى إنهم ذكروا أشياء يسيره عند من فعلها ، مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه ، أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب [1] .

الجواب الخامس :

وخلاصته : أن العلماء في كل مذهب ذكروا في أبواب الفقه باباً يسمى (باب حكم المرتد) ، وهذا الباب خاص فيمن يقول (لا إله إلا الله) ثم يأتي بمكفر .

فإذا كان العلماء ذكروا أسباباً للردة ، وكثير منها أهون مما تفعلونه ، وتعتقدونه ، فكيف بما تعتقدونه ، وتفعلونه ؟!

---

(١) يدل عليه حديث أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرقين . متفق عليه ، واللفظ للبخاري .

وجاء عنه رضي الله عنه مرفوعاً : إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار . رواه الترمذي .

وقال ابن تيمية في الصارم المسلول : أجمع المسلمون على أن من استهزأ بالله ورسوله ولو كان مازحاً لاعباً فإنه كافر بالله مرتد .

ويقال أيضاً : الذين قال الله فيهم ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ ﴾. أما سمعت الله كفرهم بكلمة مع كونهم في زمن الرسول ﷺ ، ويجاهدون معه ، ويصلون معه ويزكون ، ويحجون ، ويوحدون ؟!

وكذلك الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ .

فهؤلاء الذين صرح الله أنهم كفروا بعد إيمانهم ، وهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح .

فتأمل هذه الشبهة ، وهي قولهم : تكفرون المسلمين أناساً يشهدون ألا إله إلا الله ويصلون ويصومون . ثم تأمل جوابها ، فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق .

الجواب السادس :

وخلاصته : أن المنافقين الذين كانوا في زمن النبي ﷺ كفروا لما سخروا بالصحابة ، مع أنهم خرجوا مجاهدين ، ويقولون (لا إله إلا الله) ويصلون ، ويزكون ، ويحجون ، ومع ذلك كفرهم الله بقوله ﴿ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ فإذا كان هؤلاء كفروا لأنهم قالوا كلمة كفر على وجه المزح ، فكيف بمن لم يقل فقط ، بل فعل أيضاً ؟! وكيف بمن فعل لا على وجه المزح بل على وجه الجد ؟!

قال ابن تيمية في الصارم المسلول : أجمع المسلمون على أن من استهزأ بالله ورسوله ولو كان مازحاً لاعباً فإنه كافر بالله مرتد.

ويقال أيضاً : كفر الله المنافقين ، وأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار ، مع أنهم أكدوا شهادتهم بثلاث مؤكدات ، كما قال تعالى ﴿ إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

مسألة : اختلف أهل العلم في حال أولئك النفر قبل أن يقولوا هذا الكلام على قولين :

١. كانوا منافقين أصلاً : وهذا الذي عليه أكثر المفسرين فيما وقفت عليه من أقوالهم ، واختاره شيخنا ، وأما قول الله تعالى ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أي كفرتم ظاهراً بعد إن كان كفركم باطناً ، فظهر كفركم للناس .

ويؤيد ذلك أن طائفة من المنافقين خرجوا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك كما هو معلوم .

٢. كانوا من الصحابة : وكان إيمانهم ضعيف ، و لم يقصدوا الوقوع في الكفر مع علمهم بأنه أمر محرم .

وهذا القول نصره ابن تيمية ، واختاره محمد بن عبد الوهاب ، وصاحب فتح المجيد .

ومن الدليل على ذلك أيضاً : ما حكى الله عز وجل عن بني إسرائيل مع إسلامهم وعلمهم وصلاحهم أنهم قالوا لموسى (اجْعَل لَّنَا إِلَـــهاً) .
وقول أناس من الصحابة : (اجعل لنا ذات أنواط) ، فحلف رسول الله ﷺ أن هذا مثل قول بني إسرائيل : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَـــهاً ﴾ .

الجواب السابع :

وخلاصته : أن طائفة من قوم موسى عليه السلام مع علمهم وصلاحهم ، قالوا لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) .

وبيان ذلك : أنها كلمة كفر ، فدل أن الإنسان وإن قال (لا إله إلا الله) وكان على صلاح وهدى ، فإنه قد يكفر بكلمة يقولها ، أو اعتقاد يعتقده ، أو عمل يعمله .

وقال طائفة من أصحاب خير المرسلين محمد ﷺ (اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط) فجعل النبي ﷺ هذه المقولة مثل مقولة أصحاب موسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) .

وهذا الطلب من الصحابة من باب الشرك الأصغر ، على الصحيح .

وهذه من المسائل المشكلة على الشراح .

والذي يظهر لي أن طلب الصحابة من باب الشرك الأصغر[1] .

وأما وجه التشبيه بين مقالة أصحاب موسى ، وأصحاب النبي ﷺ أن أصحاب موسى لما جاوزوا البحر مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إله كما لهم آلهة ، وهذا الطلب شرك أكبر بلا إشكال ، وأصحاب النبي ﷺ لما مروا على المشركين وهم يعكفون عند شجرة يطلبون بركتها ، طلبوا من النبي ﷺ شجرة يتبركون بها ، و لم يظنوا أن التبرك ممنوع ، لأنهم حدثاء عهد ، فوجه الشبه بين المقالتين ليس في الحكم ، وإنما في الحال ، والله أعلم .

وهذا الطلب لم يكن من جميع الصحابة ، بل من الذين أسلموا حديثاً عام الفتح ، كما صرح أبو واقد الليثي ، وكان هو ممن أسلم عام الفتح .

فعن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها (ذات أنواط) فمررنا بسدرة ، فقلنا : يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر إنها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون . لتركبن سنن من كان قبلكم . رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه ، والنسائي ، وصححه الألباني .

---

(١) وقد نص الشيخ محمد بن عبد الوهاب على ذلك في بعض المواضع ، كما في مسائل كتاب التوحيد .

ولكن للمشركين شبهة يدلون بها عند هذه القصة ، وهي أنهم يقولون : إن بني إسرائيل لم يكفروا بذلك ، وكذلك الذين سألوا النبي ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط .

فالجواب أن نقول : إن بني إسرائيل لم يفعلوا ، وكذلك الذين سألوا النبي ﷺ لم يفعلوا .

ولا خلاف أن بني إسرائيل لو فعلوا ذلك لكفروا .

ولا خلاف أن الذين نهاهم النبي ﷺ لو لم يطيعوه ، واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا .

وهذا هو المطلوب .

بعد أن ذكر المؤلف هذه الأجوبة على تلك الشبهة العظيمة ، وهي أن من قال (لا إله إلا الله) وصلى لا يكفر ، ذكر هنا بعض الأدلة التي يستدلون بها على هذه الشبهة .

وهذا الاستدلال ، وجواب الشيخ عليه داخل في الجواب على الشبهة العاشرة ، إذ هذه الأدلة يستدلون بها على تقرير الشبهة العاشرة .

الجواب الثامن :

الجواب عن الدليل الأول على الشبهة العاشرة :

وخلاصة الدليل : أن أصحاب موسى قالوا كلمة الكفر ، ومع ذلك لم يكفروا .

وخلاصة الجواب عليه :

١. أن هؤلاء لم يفعلوا ذلك ، ولو فعلوا ذلك لكفروا بهذا الفعل بعد العلم بالحكم ، وهذا جواب الشيخ هنا(١) .

٢. أن هؤلاء كانوا حدثاء عهد بكفر ، فقالوا ذلك على جهة الجهل بالحكم ، وقد أجمع العلماء على أن حديث العهد بالكفر يعذر بجهله ، حكى الإجماع على ذلك : ابن عبد البر ، والنووي ، وابن قدامة ، وابن تيمية .

ويدل على ذلك قول موسى لهم ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ واعتذار أبي واقد ، وهو راوي الحديث عن هذه المقولة بقوله (ونحن حدثاء عهد بكفر) ، وهذا جواب ابن تيمية ، وهو أقرب .

ولكن هذه القصة تفيد : أن المسلم ـ بل العالم ـ قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها .

---

(١) لا يفهم من كلام الشيخ أنهم لم يكفروا لأنهم لم يفعلوا ، بل إنهم لو لم يفعلوا واعتقدوا فقط لكفروا بذلك الاعتقاد دون الفعل ، ولو فعلوا لكان أمراً زائداً ، لكن مراده أنهم قالوا ذلك عن جهل ، و لما نبههم النبي ﷺ تنبهوا ،فدل ذلك أنهم ما قالوا ذلك إلا جهلاً ، وهذا مانع يدل عليه أنهم حدثاء عهد بكفر كما في أول الحديث.

(٢) فالكفر على المخالفة لأمر النبي ﷺ ، وإن كان في هذا إشكال أيضاً .

وقد ذكر الشيخ في موضع أن هذا الطلب من باب الشرك الأصغر ، كما سبق .

فتفيد التعلم والتحرز ، ومعرفة أن قول الجاهل (التوحيد فهمناه) أن هذا من أكبر الجهل ، ومكائد الشيطان .

وتفيد أيضاً : أن المسلم المجتهد الذي إذا تكلم بكلام الكفر ـ وهو لا يدري ـ فنُبه على ذلك ، وتاب من ساعته أنه لا يكفر ، كما فعل بنو إسرائيل ، والذين سألوا رسول الله ﷺ .

وتفيد أيضاً : أنه لو لم يكفر فإنه يغلظ عليه الكلام تغليظاً شديداً ، كما فعل رسول الله ﷺ .

بعد أن ذكر المؤلف قصة ذات أنواط ذكر بعض الفوائد المستفادة من هذه القصة ، وهي كالتالي :

أ. **أهمية التعلم والتحرز** ، التعلم للجاهل ، والتحرز للعالم ، أما التعلم فحتى لا يقع في الشرك بسبب جهله ، وأما التحرز فلأن الذين هم أفضل منه كادوا يقعوا في الشرك ووسائله.

ب. **لا بد من تكرار تدريس التوحيد وشرحه** ، وتفهيم الناس له حتى يفهموه فهماً جيداً ، وقول الجاهل (التوحيد فهمناه) من أكبر الجهل ومكائد الشيطان [١].

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : لا يُزهد في التوحيد ، فإن بالزهد فيه يوقع في ضده . وما هلك من هلك ممن يدعي الإسلام إلا بعدم إعطائه حقه ، ومعرفته حق المعرفة .

ج. أن من نطق بكلمة الكفر جاهلاً – وكان مثله يعذر بذلك – فإنه لا يكفر حتى تبلغه الحجة .

قال ابن تيمية : وليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين ، وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة ، وتبين له المحجة .

د. أن من تكلم بالكفر ولو كان جاهلاً يغلظ عليه الكلام تغليظاً شديداً .

– قال ابن تيمية تعليقاً على قصة ذات أنواط : فأنكر النبي ﷺ مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين عليها سلاحهم ، فكيف بمن هو أعظم من ذلك من مشابهتهم للمشركين ، أو هو الشرك بعينه .

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : وهذه الكلمة (التوحيد فهمناه) قد صدرت من بعض الطلبة لما كثر التدريس في التوحيد متنه ، أو كتب نحوه سئموا ، وأرادوا القراءة في كتب أخرى . وقيل : إنما صدرت من المراسلين أ.هـ

وفي بعض رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب قال : ومع هذا يقول لكم شيطانكم المويس : إن بنيات حرمة وعيالهم يعرفون التوحيد فضلاً عن رجالهم .

وللمشركين شبهة أخرى يقولون : إن النبي ﷺ أنكر على أسامة ﷺ قتل من قال (لا إله إلا الله) وقال : أقتلته بعد ما قال (لا إله إلا الله) .

وكذلك قوله (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله) .

وكذلك أحاديث أخرى في الكف عمن قالها .

ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لا يكفر ، ولا يقتل ولو فعل ما فعل .

فيقال لهؤلاء الجهلة المشركين : معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود ، وسباهم ، وهم يقولون لا إله إلا الله ، وأن أصحاب الرسول ﷺ قاتلوا بني حنيفة ، وهم يشهدون لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، ويصلون ، ويدعون الإسلام ، وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب ﷺ بالنار .

وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال (لا إله إلا الله) وأن من أنكر شيئاً من أركان الإسلام كفر ولو قالها .

فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئاً من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أساس دين الرسل ورأسه ؟!

ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث :

فأما حديث أسامة ﷺ فإنه قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعاه إلا خوفاً على دمه وماله .

والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك .

وأنزل الله تعالى في ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ الآية ، أي : تثبتوا .

فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت ، فإن تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله ﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى .

وكذلك الحديث الآخر وأمثاله معناه ما ذكرت : أن من أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكف عنه إلا أن تبين منه ما يناقض ذلك .

والدليل على هذا : أن رسول الله ﷺ الذي قال (أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله) ، وقال (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله) هو الذي قال في الخوارج (أينما لقيتموهم فاقتلوهم) ، (لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد) مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً ، حتى أن الصحابة يحقرون أنفسهم عندهم ، وهم تعلموا العلم من الصحابة .

فلم تنفعهم (لا إله إلا الله) ولا كثرة العبادة ، ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة .

وكذلك ما ذكرنا من قتال اليهود ، وقتال الصحابة رضي الله عنهم بني حنيفة .
وكذلك أراد النبي ﷺ أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل منهم أنهم منعوا الزكاة ، حتى أنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ الآية . وكان الرجل كاذباً عليهم .
فكل هذا يدل على أن مراد النبي ﷺ في الأحاديث الواردة ما ذكرناه .

الجواب التاسع :

الجواب عن الدليل الثاني على الشبهة العاشرة :

وخلاصة الدليل : أن النبي ﷺ أنكر على أسامة بن زيد قتله الرجل الذي قال (لا إله إلا الله) وغلظ عليه في القول ، حتى قال أسامة (لقد تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) .

فدل أن من قال (لا إله إلا الله) لا ينبغي أن يقتل ولا يكفر .

وخلاصة الجواب عليه بأمرين :

١. جواب عام : وهو خلاصة ما سبق ذكره من الإجابات على هذه الشبهة ، من قتال النبي ﷺ لليهود مع أنهم يقولون (لا إله إلا الله) ، وقتال الصحابة لبني حنيفة وهم يقولونها ، وتحريق علي رضي الله عنه لطائفة ممن يقول هذه الكلمة ، ويقال أيضاً : أنتم تقولون : من أنكر البعث كفر ، ومن أنكر ركناً من أركان الإسلام كفر ـ وهو كذلك ـ حتى لو قال (لا إله إلا الله) فدل على بطلان قولكم .

٢. **جواب خاص :** أن النبي ﷺ لم ينكر على أسامة أصل القتل ، وإنما أنكر عليه عدم التثبت ،ولذا قال له : أشققت عن قلبه.

وبيان ذلك : أن الإنسان إذا ادعى الإسلام وجب الكف عنه ابتداء لا مطلقاً ، فيكف عنه مؤقتاً حتى يتبين منه استمراره على ما ادعاه من الإسلام ، فإن تبين منه بعد ذلك ناقض ، فإنه يجب تكفيره ، وقتله ، وإن قال لا إله إلا الله .

وقد نبه الحافظ ابن حجر لهذا المعنى بقوله : يجب الكف عنه حتى يختبر أمره ، هل قال ذلك خالصاً من قلبه ، أو خشية القتل.

ولذلك أردف المؤلف مدعماً لما شرح به الحديث قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ... فتبينوا) .

وقال : ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبيت معنى .

قال القرطبي في تفسير الآية : (وهذا الذي قال (سلام عليكم) تكلف الكلمة ، فإن قالها تحقق رشاده ، وإن أبى تبين عناده وقتل ، وهذا معنى قوله (فتبينوا) أي الأمر المشكل ، أو (تثبتوا) ولا تعجلوا والمعنيان سواء) .

وقال ابن حجر عند هذه الآية : وفي الآية دليل على أن من أظهر شيئاً من علامات الإسلام ، لم يحل دمه حتى يختبر أمره ، لأن تحية السلام تحية المسلمين ، وكانت في الجاهلية تحيتهم بخلاف ذلك ، فكانت هذه علامة .

والخلاصة أن ما جاء في هذا الحديث وما في معناه : أن من أظهر إسلامه بكل ما يدل على الإسلام فإنه يكف عنه ، فإن جاء بناقض حكم بكفره على حسب ما هو معروف .

....

الجواب العاشر :

الجواب عن الدليل الثالث على الشبهة العاشرة :

والدليل هو قوله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا (لا إله إلا الله) فمن قال (لا إله إلا الله) عصم مني ماله ، ونفسه ، إلا بحقه ، وحسابه على الله . متفق عليه

وخلاصة الدليل : أن النبي ﷺ نهى عن قتل من قال لا إله إلا الله .

وخلاصة الجواب عليه : هو بعينه الجواب عن الدليل الثاني ، ويقال أيضاً : النبي ﷺ الذي قال ذلك ، هو الذي قال في الخوارج (أينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجر عند الله) . وقـال عنهم (لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد) . مع أنهم يقولون (لا إله إلا الله) ويصلون ، ويصومون ، ويقومون الليل ، بل أعمالهم أكثر من أعمال الصحابة في الظاهر ، كما قال ﷺ (يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم)[1] .

ويضاف عليه أنه ﷺ استثنى في نفس الحديث بقوله (إلا بحقه) فبـطل تعميمكم للحديث، بل صار الحديث حجة عليكم.

قال ابن حجر : إن كان الضمير في قوله (بحقه) للإسلام ، فمهما ثبت أنه من حق الإسلام تناوله ، ولذلك اتفق الصحابة على قتال من جحد الزكاة .

---

(١) تنبيه : الكلام في الخوارج هنا إنما هو عن حكم قتالهم ، وأما كفرهم ففي مذهب أحمد روايتان ، والصحيح أنهم ليسوا كفاراً .

ولهم شبهة أخرى وهي ما ذكر النبي ﷺ أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى ، فكلهم يعتذرون ، حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ .

قالوا : فهذا يدل أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً .

فالجواب أن تقول : سبحان من طبع على قلوب أعدائه ، فإن الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها ، كما قال تعالى ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ .

وكما يستغيث إنسان بأصحابه في الحرب وغيره في أشياء يقدر عليها المخلوق .

ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند القبور الأولياء ، أو في غيبتهم[١] في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى .

إذا ثبت ذلك فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف ، وهذا جائز في الدنيا والآخرة ، أن تأتي عند رجل صالح يجالسك ويسمع كلامك تقول له : ادع لي ، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه في حياته .

وأما بعد موته فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره ، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره فكيف دعاؤه بنفسه [٢] ؟!

الشبهة الحادية عشرة :

وخلاصتها : جواز الاستغاثة بالصالحين ، لثبوت ذلك في حديث الشفاعة .

وخلاصة الجواب عليها : أن هذه الاستغاثة ، وطلب الشفاعة من جنس الاستغاثة الجائزة ، لأن الجميع في ذلك الموقف أحياء حاضرون ، والطلب مقدور عليه ، فهو استدلال في غير محل النزاع .

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : قوله (عند قبور الأولياء في غيبتهم) خرج مخرج الواقع والغالب ، وإلا فالأصنام ونحوها كذلك ، والحي الحاضر في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله ، كالسؤال منه هداية القلوب أو رفع جبل ونحوه ، وهذا كله استغاثة شركية .

(٢) يشير المصنف إلى نحو ما أخرجه الضياء في (المختارة) وحسنه ابن عبد الهادي في (الصارم المنكي) : أن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رأى رجلاً يجيء إلى فرجة عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه . وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ أنه قال (لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم) .

....

وبيان ذلك :

أن نقول : الاستغاثة بالمخلوق نوعان :

أ. جائزة : وهي الاستغاثة بالحي الحاضر فيما يقدر عليه ، وذكر المؤلف الدليل عليها ، وهو قوله تعالى عن موسى عليه السلام ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾(١).

ب. شركية : وهي الاستغاثة بالميت ، أو الغائب ، أو في شيء من خصائص الرب سبحانه ، كجلب الرزق والولد ونحو ذلك .

والاستغاثة التي ينكرها دعاة التوحيد هي الاستغاثة الشركية .

وأما الحديث الذي استدللتم به فلا يدل على مرادكم ، بل هذا النوع يعتبر من الاستغاثة الجائزة ، إذ أن الأنبياء في ذلك الوقت أحياء ، ويسمعونهم ، ويخاطبونهم ، وسألوهم ما يقدرون عليه ، وهو أن يشفعوا لهم عند الله .

فأين هذا مما تفعلونه من سؤال الأموات ، أو الغائبين ، أو الحاضرين في أمر لا يقدرون عليه ؟!

---

(١) قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن : والدليل من الآية : ترك إنكاره ، وسياقه على وجه التقرير .

ولهم شبهة أخـــــرى ، وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار اعترض له جبرائيل في الهواء فقال : ألـــك حاجة ؟ فقال إبراهيم عليه السلام : أما إليك فلا .

قالوا : فلو كانت الاستغاثة بجبرائيل شركاً لم يعرضها على إبراهيم .

فالجواب : أن هذا من جنس الشبهة الأولى ، فإن جبرائيل عليه السلام عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه ، فإنه كما قال الله تعالى فيه ﴿ شديد القوى ﴾ فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم ، وما حولهـــا مـــن الأرض ، والجبال ، ويلقيها في المشرق ، أو المغرب لفعل ، ولو أمره الله أن يضع إبراهيم في مكان بعيد لفعل ، ولـــو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل .

وهذا كرجل غني ، له مال كثير ، يرى رجلاً محتاجاً ، فيعرض عليه أن يقرضه أو يهبه شيئاً يقضي به حاجته ، فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ ، ويصبر حتى يأتيه الله برزق لا منة فيه لأحد .

فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون ؟!

الشبهة الثانية عشرة :

وخلاصتها : جواز الاستغاثة بغير الله ، لأن جبريل عرضها على إبراهيم عليه السلام ، ولأن إبراهيم لم ينكر ذلك عليه .

وخلاصة الجواب عليها :

١. أن هذه القصة ضعيفة[(١)] .

٢. لو صحت هذه القصة ، فإن هذا من نوع الاستغاثة الجائزة ، لأن جبريل حاضر ، وقادر على الطلب .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : فمن قال إن هذه مثل هذه ، أو توقف فيها فهو مصاب في عقله .

---

(١) أخرج هذا الأثر ابن جرير في تفسيره من طريق المعتمر بن سليمان التيمي عن بعض أصحابه ، وعزاه ابن كثير في تفسيره إلى بعض السـلف ، ورواه البغـوي في تفسير سورة الأنبياء في قصة إبراهيم عن كعب الأحبار ، لكنه ساقه بغير سند ، ورواها العجلوني في كشف الخفاء ، وعزاها إلى كعب الأحبار بلفـظ فيـه اخـتلاف وزيادة .

قال ابن تيمية : وما يروى أن الخليل لما ألقي في المنجنيق قال له جبريل : سل ، قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، ليس له إسناد معروف وهو باطل ، بـل الـذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال : حسبي الله ونعم الوكيل ، قال ابن عباس : قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد حين قال لهم الناس : إن النـاس قـد جمعوا لكم فاخشوهم .

وقد روي أن جبريل قال : هل من حاجة ؟ قال أما إليك فلا ، وقد ذكر هذا الإمام أحمد وغيره أ.هـ وانظر السلسلة الضعيفة ٧٤/١

ولنختم الكتاب بذكر آية عظيمة مهمة تفهم بما تقدم ، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها ، ولكثرة الغلط فيها ، فنقول : لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب ، واللسان ، والعمل ، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً ، فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند ، كفرعون وإبليس ، وأمثالهما . وهذا يغلط فيه كثير من الناس ، يقولون : هذا حق ، ونحن نفهم هذا ، ونشهد أنه الحق ، ولكن لا نقدر أن نفعله ، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم ، وغير ذلك من الأعذار .

ولم يعرف المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق ، ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار ، كما قال تعالى ﴿ اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ وغير ذلك من الآيات كقوله ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ ﴾ .

فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهم[1] ، ولا يعتقد بقلبه فهو منافق ، وهو شر من الكافر الخالص كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ .

وهذه مسألة طويلة تبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس ، ترى من يعرف الحق ويترك العمل لخوف نقص دنياه أو جاهه أو ملكه .

وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً فإذا سألته عما يعتقده بقلبه إذا هو لا يعرفه ، ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله تعالى :

أولاهما : ما تقدم وهي قوله ﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ .

فإذا تحققت أن بعض الصحابة[2] الذين غزوا الروم مع رسول الله ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح ، تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر ويعمل به خوفاً من نقص مال أو جاه أو مداراة لأحد أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها .

والآية الثانية : قوله تعالى ﴿ مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ﴾ الآية .

فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان ، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه ، سواءً فعله خوفاً أو طمعاً أو مداراةً لأحد أو مشحة بوطنه ، أو أهله أو عشيرته أو ماله أو فعله على وجه المزح ، أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره ، فالآية تدل على هذا من جهتين :

الأولى : قوله تعالى ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ ﴾ فلم يستثن إلا من أكره ، ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على العمل والكلام والفعل ، لا عقيدة القلب فلا يكره عليها أحد .

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : أو فهمه ولكن لم ينقد بجنانه .

(٢) لو قال : بعض من خرج مع النبي ﷺ لكان أقوم ، وسبق بيان ذلك .

الثانية : قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾ فصرح أن العذاب لم يكن بسبب الاعتقاد والجهل والبغض للدين أو محبة الكفر ، وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره على الدين ، والله أعلم .

هذا هو القسم الثالث من الكتاب ، وهو عبارة عن خاتمه مهمة ، ختم بها الشيخ هذا الكتاب .

وخلاصتها : أنه لا يجوز للإنسان بعد معرفة التوحيد أن يخالفه ، لا بالقول ، ولا بالعمل ، ولا بالاعتقاد ، وأن من حصل منه ما يخالف ذلك فإنه يكفر ولو كانت باقي الأمور لا خلل فيها ولا مخالفة ، ويستثنى من ذلك حالة واحدة فقط ، وهي المكره بشرط أن يكون قلبه مطمئن بالإيمان .

وبيان ذلك : أن المؤلف بعد أن تكلم في هذه الرسالة العظيمة عن التوحيد وبين حقيقته ، وذكر ما يخالفه من الشرك وبين حقيقته ، ودحض الشبه التي يتشبث بها المشركون لنفي الشرك عن أنفسهم ، ذكر بعد هذا كله خاتمة تبين أن الإنسان بعد قراءة هذه الرسالة ، ومعرفة الحق لا يكفيه ذلك ، بل لا بد من العمل بهذا المعلوم ، وإلا لم يفده شيئاً .

وبدأ المؤلف في تقرير ذلك بمقدمة في غاية ما تكون من الأهمية ، فذكر مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة الإيمان ، وأنه قول ، وعمل ، واعتقاد ، اعتقاد القلب ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح ، والتوحيد جزء من الإيمان بالمعنى العام ، فلا بد أن يكون بالقلب ، واللسان ، والعمل ، ومتى تخلف أحدها لم يكن ثم توحيد[1] .

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : فلابد من الثلاثة ، لابد أن يكون هو المعتَقَد في قلبه ، ولابد أن يكون هو الذي ينطق به لسانه ، ولابد أن يكون هو الذي تعمل به جوارحه ، فإن اختل شي من هذا ، لو وحد بلسانه دون قلبه ما نفعه توحيده ، ولو وحد بقلبه وأركانه دون لسانه ما نفعه ذلك ، ولو وحد بأركانه دون الباقي لم يكن الرجل مسلماً ، هذا إجماع أن الإنسان لابد أن يكون موحداً باعتقاده ولسانه وعمله .

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : اعلم رحمك الله أن دين الله يكون على القلب بالاعتقاد ، وبالحب والبغض ، ويكون على اللسان بالنطق ، وترك النطق بالكفر ، ويكون على الجوارح بفعل أركان الإسلام ، وترك الأفعال التي تكفر ، فإذا اختل واحدة من هذه الثلاث كفر وارتد .

....

وقسم المصنف التوحيد باعتبار محله إلى ثلاثة أقسام :

أ. **توحيد القلب** : وهذا أهم الأقسام ، وأعظمها ، ولا يسقط أبداً .

ويشمل قول القلب : من العلم والإقرار ، والتصديق . فعليه أن يعتقد ويصدق أن الله معبوده وحده لا شريك له .

وعمل القلب : المحبة ، والخوف ، والتوكل ، والخشية ، والانقياد ، والقبول ، والإخلاص ، وسائر العبادات القلبية التي تعد شروطاً لشهادة لا إله إلا الله .

ب . **توحيد اللسان** : وهو قول لا إله إلا الله ، وهذا واجب ولازم ، لا يسقط إلا مع العجز .

قال ابن تيمية : فمن لم يصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى موحداً .

ج . **توحيد الجوارح** : وهو العمل بلا إله إلا الله ، وذلك بصرف أنواع العبادات العملية لله ،كالذبح ، والصلاة ، وسائر أنواع العبادات .

ثم بعد ذلك بين المصنف أقسام الناس باعتبار هذه الثلاثة :

١ . من عرف التوحيد ولم يعمل به .

فجاء بقول واعتقاد القلب ـــ وهو المعرفة ـــ و لم يأت بعمل الجوارح ، وذكر أن حكمه كافر ، وهذا القسم هو الذي ركز عليه المصنف وأطال فيه ، وهو على نوعين :

أ . **من عرف التوحيد وتركه لغير عذر ، أو لأعذار واهية** . وهؤلاء على أصناف :

١- ترك العمل به عناداً ، مثل إبليس وفرعون ، وعلماء اليهود وغيرهم .

٢- ترك العمل به لخوف نقص مال ، كما لو علم أنهم لو علموا أنه موحد لا يشترون منه ، ولا يبيعون له في غير الضروريات .

٣- ترك العمل به لخوف نقص جاه : كأن يكون له مكانة عندهم ، فإذا عمل بالتوحيد نزلت مكانته الاجتماعية ، ومثال ذلك ما كان من حال أبي طالب ، حيث كان يعلم أن الحق هو ما جاء به النبي ﷺ ، ولكن تركه خوفاً من أن ينقص جاهه عند الناس ، وقال في قصيدته المشهورة :

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذار مسبة   لرأيتني سمحا بذاك مبيناً

٤- ترك العمل به مداراة ومجاملة .

٥- ترك العمل به مشحة بالوطن ، كأن يكون يحب وطنه ، فيترك العمل بالتوحيد مقابل البقاء في الوطن .

٦- ترك العمل به مشحة بالأهل والعشيرة ، فمحبة أهله وعشيرته غلبته على العمل بالتوحيد وإنكار الشرك .

فكل هذا لا يعذر الإنسان به ، وهذه الأمثلة التي ذكرها المؤلف وجدت في زمانه .

واستدل على بطلان هذه الأعذار بقصة الذين سخروا من الرسول ﷺ وأصحابه في غزوة تبوك ، فلم يعذرهم النبي ﷺ ويقاس عليه هذه الأعذار ، لأنها أعظم من ذلك .

....

ب . من عرف التوحيد وتركه لعذر :

وهذا العذر لا يكون إلا في المكره بشرط أن يكون قلبه مطمئناً بالإيمان ، لأنه لا إكراه على القلب .

وأما غير هذا فإنه كفر ، واستدل لذلك بقوله تعالى ﴿ مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ﴾ الآية .

فلم يستثن من الكفر إلا هذا النوع(١) .

٢. من عمل بالتوحيد ظاهراً ولم يعتقده بقلبه .

وهذا جاء بعمل اللسان والجوارح ، وتخلف عمل القلب ، وهذا منافق ، وهو شر من الكافر الخالص .

وانظر إلى كتاب (تعليقات على كشف الشبهات) للشيخ / عبد العزيز آل عبد اللطيف ، ففيه نقول مفيدة حول هذا المقطع .

وبهذا يكون هذا الجمع قد انتهى

نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص فيه

والانتفاع بما فيه ،وأن يميتنا

على التوحيد الخالص، وأن

لا يضلنا عنه طرفة

عين، آمين

آمين

وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

١٤٢٠/٧/١٧ هـ

وتمت مراجعة الشرح ١٤٣١/٤/١١هـ

(١) المصنف رحمه الله لم يذكر وسائل الإكراه التي يعذر فيها ، ولكن ذكر العلماء أن الإكراه قسمان :

١. إكراه ملجئ : ومن أمثلته التهديد بالقتل ، أو الضرب الذي لا يحتمل ، بشرط أن يكون ذلك من قادر ، ودليل هذا ما جاء في قصة الحجاج بن علاط السلمي الذي استأذن الرسول ﷺ في أن ينال من الرسول ﷺ كي يستنقذ ماله من مكة ، فأذن له الرسول ﷺ . رواه أحمد و أبو داود بسند صحيح .

٢. إكراه غير ملجئ : أن يكره على شيء أو يهدد بشيء يتحمله ، وهذا ليس بعذر ، حتى لو كان القلب مطمئن بالإيمان .